www.kotobarabia.com

رواية

إبراهيم عبدالمجيد

الصياد واليمام

www.kotobarabia.com

الصياد واليمام

رواية

إبراهيم عبد المجيد

طبقا لقوانين الملكية الفكرية

جميع حقوق النشر و التوزيع الالكتروني لهذا المصنف محفوظة لكتب عربية. يحظر نقل أو إعادة نسخ أو إعادة بيع اى جزء من هذا المصنف و بثه الكترونيا (عبر الانترنت أو للمكتبات الالكترونية أو الأقراص المدمجة أو اى وسيلة أخرى) دون الحصول على إذن كتابي من كتب عربية. حقوق الطبع الو رقى محفوظة للمؤلف أو ناشره طبقا للتعاقدات السارية.

"الإسكندرية، مدينة تقع على الساحل الشمالي لمصر. بناها الإسكندر المقدوني وأعطاها اسمه. وهي بموقعها الجميـل، مصيف كبير".

لم يفكر أن بالإسكندرية أرصفة وقطارات. وفي أيام بؤسه التالية، كثيرا ما كان يضحك حين يتذكر كيف سـأل تلميـذ المدرس "أين كان يصطاف الناس لـو لـم يـبن الإسـكندر الإسكندرية؟"

لم يكن قد رأى هذه المدينة، ولا كان يحلم أن يراها. فقط يتكرر اسمها في كتابي التاريخ والجغرافيا. ووحدة، من بين الأسماء العديدة للمدن والأقطار، كان له وقع خـاص علـى سمعه، وتأثير غير مفهوم على عينيه. مرة يقول أن جرسـه جميل، وحروفه الكثيرة ملفتة للنظر. ومرة أنها من بين كثير من المدن تنطق مسبوقة بالألف واللام. هكذا هي دائما فـي الكتب والإذاعات. فهي مدينة تختلف بالتأكيد عـن غيرهـا. وشيء يقال كأنه معروف مـن أول الزمـان. وهـي، وإن شابهتها بعض المدن أو الدول في ارتبـاط اسـمها بـالألف واللام، فرسم الإسكندرية أو جرسها، متفرد كشجرة وحيـدة في صحراء واسعة من رمال أو صخور. لكنه وقـد سـمع

الجميع ينطقونها "إسكندرية" في حديثهم اليومي، بعد أن دخلها من بابها الواسع الذي يدخله الغرباء كل يـوم، فكـر كيـف ينطقون اسمها بإهمال. أي عداوة تقوم بين الناس والمدينـة، أو أي محبة تلك التي تنتهي بعدم اكتراث؟

لم يكن مهتما بأن يجد اسم المدينة في بقية الكتب، فقد كان يذاكر جيدا! لكنه رسب ثلاث مرات متوالية فقال أبوه كأنـه يتثاءب.

- لا أستطيع أن أعيد قيدك مرة أخرى. عشرة جنيهـات لا أملكها مرتين في عامين، اعمل معي.

رأى أباه ينام فوق الحلم بأن يراه ناجحا فـي الإعداديـة فيترك كفر الزيات، فناجحا في التوجيهية فيغادر طنطا، ثـم ناجحا في الجامعة فيعود من القاهرة شيئا كبيرا. أما هو فلـم يكن يحلم. كان يشعر دائما أنه وحيد يمشـي فـي العـراء. وأحس أنه خذل الرجل الذي كان سيدبر النقود – لو نجـح – من دمه. أوشك أن يقبل يديه محبة حين أعلنه بالعمل الـذي يكرهه!

* * *

- سننتقل إلى الإسكندرية.

قال أبوه مهموما في مساء اليوم التالي فرأى أمه تصـمت طويلًا. سمع المطر الثقيل البطيء يسقط فوق السطح، وأطال أبوه صلاة العشاء.

- هناك سكن لنا؟

قالت الأم وما فرغ الأب من صلاته. سـلم وقـال فـي اقتضاب.

– سكن المصلحة.

كان ثياب أبيه في تلك الليلة أكثـر اتسـاخًا. علـق بهـا مازوت كثير. وكذلك كانت يداه التي لم يفلح "الجـاز" فـي تنظيفها تماما، والتي كثيرا ما قلبهما أمامـه داعيـا إيـاه أن تجتهد لينجح حتى لا يصبح "عسكري دريسة"، فلا ذنب لـه كي يخلع القضبان القديمة ويركب الجديدة، أو يحمل الفلنكات الخشبية والحديدية الثقيلة ويحفر أرضا بهمة، أو يخرج فـي قلب ليالي الشتاء لإصلاح ما ينجم عن الحوادث الطارئة في وقت توجب فيه نوم الملائكة والشياطين. وكان مثل أبيه يكره ذلك. يكره أكثر "سكن المصلحة" الذي يعـيش فيـه عمـال الدريسة. فهو بعيد عن القرية. عن المدرسة. عن المدينـة. عن كل شيء. بيوته العشرة يضمها الخوف بالليل ومن بعيد

تخيف! تقبع فيها شمس النهار وتبدو قد نساها الدهر! وفـي كل الأحوال يبدو "السكن" شيئا سقط من قطار سـريع ولـم يسأل عنه أحد.

أعادت أمه السؤال كأنها لم تسمع. أعاد أبوه الإجابة كأنه لم يقل. قال المدرس وقالت الكتـب إن الإسـكندرية مدينـة جميلة. لابد إذن أن سكن المصلحة بها مختلف. سيكون بعيدا عن القطارات العابرة فلن يتفرج عليهم أحد. لن تثير عجلات القطار غبارا تنثره فوقهم. لن يخرج الأطفال الحفاة ليقـذفوا القطارات بالحجارة، سيكون الأطفال مثلما كان يدركون مـن كثرة القطارات واختلاف وجوه ركابها، أن الـدنيا واسـعة، وربما لا نهاية لها، بل أكبر من الكرة الأرضية ولا تدور في فراغ مثلها!!

لم يستطع أن يعلن لأبيه أن الإسكندرية لن تكون قاسـية. إنه يحبه. حين دخل مدرسة القرية، التي تبعد ثلاثـة أميـال يمشيها مرتين كل يوم، عرف أن أباه عظيم لأنه الذي ركب وفرد القضبان الطويلة، التي يمشي بينها وفوقها كـل هـذه المسافة. حين التحق بالمدرسـة الإعداديـة رأى المركـز. صارت المسافة خمسة أميال. صار يحب أبـاه أكثـر فهـو

مسكين ليعمل كل هذا العمل، ولا يجب أن تترك أمه الدجاج يمرح في الحجرة فيقلق نومه، خاصة وأنه كثيرا ما تصـعد دجاجة إلى صدر أبيه وتنقر عينه فينهض، ولا يستطيع النوم مرة ثانية. وحين رأى المدينة لأول مـرة، وكانـت مدينـة طنطا، خلال رحلة مدرسية، ركـب القطـار وزار السـيد البدوي. صلى مع زملائه وعاد يفكر، أن رجالا مثل أبيه لابد قصار العمر. لكنه أيضا فكر لماذا حين يذكرون "القرية" في كتب المدرسة، يقولون بعـدها "المدينـة" ولا يـأتي ذكـر "المركز"؟ لم يكن قد رأى في طنطا مصانع ولا مداخن مثـل التي في كفر الزيات. تساءل كثيرا حتى أدمن التساؤل. صار يحدث به نفسه بصوت مسموع ففاجأه المدرس.

- بماذا تتحدث أثناء الدرس؟

ارتبك. تلعثم ثم انطلق يسأل فقال المدرس دون تردد كأنما انتظر السؤال.

- دائما يا ولدي لا قيمة للأشياء النصف نصف.

ما كاد يحاول أن يفهم حتى رأى العرق يقفز فوق جبـين المدرس الذي جعل يتراجع قليلا قليلا حتى جلس إلى مكتبـه شبه منهار ثم أشعل سيجارة بيد مرتعشة، وأخذ نفسا عميقًـا

وطأطأ رأسه، ولما زفر سمع صوته، وخرج الـدخان قويـا متماسكًا اصطدم بالمكتب، فتبعثر في شكل دائرة واسعة. ظل هو واقفا لا يستطيع الجلوس. أحس أن الفصل صار فارغـا ولم يعد به غيره والمدرس الذي وضع السيجارة بين شفتيه، ثم أحاط رأسه بكفيه، واستغرق في النظر إلى مكتبه قلـيلا، وسرعان ما خرج معلنا أنه لا درس اليوم.

مغتما رأى أباه ينام. بات هو يفكر في القسوة والجمـال! لن يفهم أبوه ما تقوله الكتب عن الإسكندرية. عنـد الفجـر تعب. ما كاد ينام حتى شق المطر الذي توحد بالليل صـوت صراخي كهفي.

* * - خدني معك أصطاد...

جذبت الطفل بعيدا. أحضرت بلوفر.

- أرتديه تحت الجاكت.

ارتداه في تحفز. ناولته الجاكت الكاكي المبطن. ارتداه في تحفز أيضا.

- أنت متوتر.

تناول البندقية الخفيفة بطريقة تؤكد أنه سيقتل أحدا.

- ألا تقلع عن صيد اليمام؟

نظر إليها بحدة ودهشة. أغمضت عينيها.

- أما آن لك أن تكفّي!؟

- خمسة عشر عاما تصطاد اليمام!؟

- أنك تأكلين مما أصطاد..

لم يفهم، ربما لأكثر من ألف مرة، كيف تنظر إليه. وكما يحدث كل يوم، أرادت أن تقول شيئا فخرج شيء آخر.

- لكنك مريض.

واقتربت منه. سعل خفيفا ثم بقوة. ترك البندقية والتفـت يبصق بعيدا عنها. ناولته كوب ماء.

- اشرب.

أشاح بذراعه. وضعت الكوب فوق كوميدينو. لم تسـتطع أن تمنع الدمعتين. استدار. احكم الجاكت. علق مخلاته حول كتفه. أمسك بالبندقية من جديد. غادر الحجرة بخطوات ثابتة مثل إله.

- خذني معك أصطاد.

سمع الصوت وهو يعبر الصالة. سمع الطفل يبكي فعرف أنها تنهره. لحقت به عند الباب.

- متى ستعود؟

أول مرة تسأله ذلك.

- اليوم طبعا.

قالها بفتور. لكنه استدار. إنه إنسان طيب يتأمل عينيهـا الدامعتين كل يوم.

- خمس سنوات ولا صيد وما زلت تخرج. اليـوم بـرد شديد؟

- لا تخشي شيئا.

ربت على كتفها. استدار ثانية. فتح البـاب. أغلقـه لأول مرة بنفسه. قال بعد أن غادر البيت "الحمقـاء تقـول إنـي لا أصطاد". فكر أن الحماقة كثيرا ما تصدر عن قلب وديع. أحس أنه يمكن أن يقترب منها. أن يعود بهاء الأيام الأولى. آه لو يفهم ماذا باعد بينهما. بسرعة وجد نفسه قد وصل إلى منطقة الصيد. لاحظ أنه لم ير في الطريق أحدا. لـم يقابلـه إلا وجه الريح.

حين تتشابه الأيام في زمن، لا يدركـه النـاس. وحـين يفكرون يعرفون كم هو قبيح.

صورته لم تتغير كثيرا. اليوم والأمس. الشتاء والصيف. هذا العام والماضي. يداه وعيناه. بندقيته وحبات الرش الدقيقة

البيضاء. المخلاة الكاكي. السروال الكاكي. الجاكت الكاكي. الحذاء الأسود الثقيل ذو الرقبة فوق السروال. الأنف الرفيـع عالي العظمة. العينان الغائرتان والهالة السوداء حول كليهما. نظراته الفاحصة للسقف المغطي لنصف الرصـيف. البنـاء المرتفع عن الأرض بين القضبان. العريض عشرين متـرا. الطويل ألف متر. بلاطه أسود مربع واسع. الفجوات قنـوات بين البلاط تستقر فيها حبات القمح، الذرة، الشعير، الفـول. العمال الصعايدة حمالون. دائما حمالون. سـقف الرصـيف عال. رمادي قاتم. بني متآكل. مائل إلى الجـانبين. ألـواح الصاج التي يتكون منها كبيرة ومتعرجـة. ثقـوب كثيـرة تتخللها. في الصيف تنفذ منها الأشعة فتفرش الرصيف ببقـع شوهاء من الضوء. في الشتاء فراق، الرصيف يكاد يـدخل جوف الأرض. الشمس تستكن في جوف السـماء. تعطـي الأرض ظهرها! العوارض الحديدية الممتدة تحـت السـقف تحمله، تستند على الأعمال الضخمة على الجانبين. الأعشاش الصغيرة فوق الأعمدة كثيرة. تحت ألواح وبين العـوارض أكثر. لكنها أعشاش عصافير! على جانبي الرصيف عربات السكة الحديد المحملة والفارغة. المسـطحة ينقلـون فوقهـا

الدبابات والمدافع ويمرح الجنود. المغلقة ينقلون بها الغـلال. النصف مغلقة ينقلون عليها أجولة البصل والثوم والبطـاطس وحزم القصب. أبواب مغلقة وأبواب مفتوحة. الظلام داخـل العربات الفارغة والنور حولها. صوت وقـع القـدم داخـل العربة عريض رنان. القدم مرهقة. صوت اصطدام قطرات البول بأرض العربة الحديدية يرتـاح إليـه. الآن لا يشـعر برغبة في التبول. الوقت ما يزال مبكرا. لكـن بـرد اليـوم مختلف رغم أن الشتاء الطويل يأتي كل عام. إنه يعرف ذلك ولا يستغرب له. من سبق أن استغرب لدوران السنين؟ لكـن اليوم لا أحد يقابله. لا عمل. الرصـيف خـال. الأرصـفة الأخرى على الجانبين تبدو كذلك. العصافير القليلـة تطيـر وهو لا يصطاد العصافير. لابد أن يجد اليمام. الوقت لا يزال مبكرا. يسمع خشخشة أوراق مهملة تطيرها الريـاح فـوق أرض الرصيف. لا ينزل عينيه اللتين يمسح بهما السـقف. أكثر من عشر سنوات يقتل اليمام. أكثر من عشـر سـنوات يرفع عينيه. خمس سنوات مؤامرة. لكن اليمام لن يستطيع أن يمضي فيها إلى الأبد. شيء ما في أعماقه يهتف بذلك. اليوم

صيد وفير. اليوم بداية أو نهاية. ربما بعده يحطـم بندقيتـه. يعتزل. يلقي بحبات الرش إلى المرحاض.

يسمع عواء الريح رغم أن الفضاء متسـع، والأرصـفة مفتوحة الجوانب. يرى عربـات السـكة الحديـد الفارغـة والمحملة على جانبي الرصيف كطابوري حزن. من بينهـا يرى عربات أخرى على الأرصـفة المجـاورة. لا يـزال لا يرى أحدا. ربما حين غمر النور المدينـة تعلـق النـاس بخيوطه الواهنة وصعدوا جميعا إلى السماء وهو بعد نائم مع زوجته. علمته العربات الصمت. علمه شـتاء الإسـكندرية الخشوع. كيف يكون الفرح في شتاء دافئ!؟

* * في الأيام الباردة كان يفتح صدره للهـواء. يسـتقل الأوتوبيس من "القباري" إلى "محطة الرمل". يبدأ سيرا سريعا على الكورنيش. وحين يخلو الطريق يجري. الهـواء يكـاد يطيره إلى الرصيف المقابل، وهو يخب منتشيا كفرس امتلك زمام السهول الواسعة. ينظر إلى البحر الهائج. يسمع صخب الموج فيسرع أكثر. يـرتطم المـوج بالصـخور السـوداء الضخمة الموازية لسور الكـورنيش ويتجاوزهـا فيطولـه أو ينسكب فوقه، فينتابه خوف الطفل الصغير، تلقي أمه عليه

الماء البارد لأول مرة. يضحك لأنه لا يجـد أحـدا يتعلـق بكتفيه! لا ينتقل إلى الطوار الآخر إلا بعـد أن يصـل إلـى "سيدي جابر". يعود أقل سرعة. غالبا ما يتهـادى متسـكعا. كثيرا ما يمر بيده على جدران المنازل الرطبة فيسقط بعض قشور من دهانها. أنفاسه تصير منتظمة. يرى المقاهي التـي تزحم مقاعدها الطوار بالصيف مغلقة. يمر ببـارات كثيـرة وملاهٍ فيتسلل إليه صوت موسيقى مختنقة. يرى زحاما أمـام مسارح الأفراح. لا ينقطع عن النظر إلى الأزقة العديدة التي تفتح أفواهها في بلاهة على شارع الكـورنيش وتمتـد إلـى الجنوب مخترقة شارعي تانيس وطيبة. يلمـح أحيانـا فتـاة مسرعة. امرأة تتحدث إلى شاب وتحاول أن تضم معطفهـا الذي يطيره الهواء. رأى مرة أربعة شبان مبعثـري الشـعر يرتدون سراويل ضيقة، يحيطون بامرأة مقعية بين أرجلهـم، عارية تضم ساقيها إلى صدرها وتلـف ذراعيهـا حولهمـا وترتجف وتضغط أسنانها تكاد تأكلها. كان المكـان حـولهم خرابة تفرقت فوقها الحجارة وأكوام القمامة. ما كاد يقتـرب منهم حتى التفت إليه الشـبان الأربعـة بـلا مبـالاة تشـي باستغراب. أراد أن يقول شيئا لكن عيونهم صارت شرسـة.

سمع صوت المرأة من بين سيقانهم مشروخا باكيـا. قالـت "امشي يا بن الكلب". وبدا أنه هو سبب محنتها. لم يفهم شيئا فانصرف مكملا سيره. مرة أخرى تأخر في العودة حتى كاد الليل ينتصف. كان قد جلس كثيرا على الشاطئ البارد. لـم يكن في الجو ريح، ولم يكن الموج هائجا. تنشق رائحة اليود وابتهج. فكر في السمكة التي في بطنها خاتم سـليمان. مـن يصطادها وكيف ستكون حياته؟. وفي عودته لم يفكـر فـي شيء. وصل دون أن يدري إلى كامب شيزار. بالقرب مـن كازينو اللؤلؤة الزرقاء شاهد امرأة تقف فوق الطوار المقابل وتمسك بيديها عمود النور وتضحك بصوت لا تسمعه الشقق التي يسير تحتها والمغلقة فصل الشتاء. كانت عارية أيضـا. بدت تحت الضوء الأصفر لامعة وشـاحبة. جعلـت فجـأة تصرخ بكلمات بذيئة ويختلط صـوتها بصـوت الموسـيقى المنبعثة من الملهى الذي يجلس أمام بابه رجل سمين جـدا. فكر أن يعبر الشارع إليها. لكن البحر المظلم خلفها بـدا لـه وحشا قديما يتثاءب وهو يسمع صوت موجه الهادئ الوقور! يخاف أم يشفق؟ لم يعرف. ظلت تتلوى حول العمـود وهـو

ينظر من الطور الآخر. تقدم. فتحت ذراعيها على اتساعهما وفاجأته.

- تعال يا ابن القحبة! أخذوا هدومي وتركوني. وأنت ماذا ستأخذ؟

وشخرت. كانت من الطوار الآخر تبدو جميلة وإن كانت منكوبة أهاجت أحزانه. حين اقترب رأى أن أسنانها ساقطة، وشعرها أبيض أغلبه، وثدييها طويلين، وذراعيهـا كعـودي جريد. تركها وعاد آخذا طريقه يفكر لمـاذا يكـون شـتاء الإسكندرية قاسيا؟ ويلاحقه صوت ضحكات الرجل السـمين البشعة كأنما هي قادمة من تحت البحر، فيشـعر أنـه أبلـه وبالبلاهة تنتظم الكون.

* * *

كان حين يصل إلى محطة الرمل ينظر إلى تمثال سـعد زغلول. يتعجب من شاربه! يترك ساحة التمثال إلى موقـف الأوتوبيسات خلف الموقف يرى بعض النائمين وقد تـدثروا بقطع عريضة من الكرتون وكميات من القـش أو الخـيش. وكان كثيرا ما يتساءل كيف لا تطير؟ ومن حـول الجميـع

كانت تصعد رائحة البول والبراز الكثيفة. وتحـت المظلـة لا يجد إلا قليلين يقفون متباعدين متوحدين مع البرد.

كان ينزوي في ركن. يختار لنفسه مكانـا بعيـدا أيضـا وينتظر. ولا يدري هل لأن الإنسان حيوان مجنون لا يمشي على طريق إلا وغيرها، أم لأنه بقدر ما يستسلم للملل يرغب في كسر نمط الحياة العادي، أم لأسباب أخرى، كـان وهـو تحت المظلة، يراقب الزقاق القصير المجاور لمنشأة المعارف والمؤدي إلى شارع سعد زغلول. الزقاق يواجهه من بعيـد. ويتابع هو العدد القليل من المارة وهم يندفعون داخله أو منه. البعض يحمل شمسية. البعض يقفز قفزات واسعة فوق المياه المنسابة جوار الرصيف. وكثيرا ما أتت حافلته ولم يفطـن. المندفعون إلى شارع سعد زغلول يبتلعهم ظلام أو فم وحش واسع والقادمون لا يأتون إلى المظلـة. لا يـدخلون شـارع الغرفة التجارية. لا يتجهون إلى موقـف التـرام القريـب. لا يصعدون إلى السماء. يدخلون جميعـا الشـارع الضـيق المجاور للغرفة التجارية على يسار الزقاق. تكرر ذلك فـي كل ليلة.

أوشك شتاء أن ينصرم فغادر المظلة متجهـا إلـى هـذا الشارع. لم يجد فيه غير بعض عربات يد مغطـاة بالشـمع الأبيض ومربوطة بحبال ولا يظهر ما تحمله. فيما بعد وفي وقت مبكر عن ذلك رأى فوق العربات تفاحا أحمر وأجهـزة كهربائية صغيرة.

لم يجد في الشارع أحدا ممن دخلوه وهو تحت المظلـة. وقف قليلا فلم يأت أحد من شارع سعد زغلول! لم يفكر فـي شيء مخيف! فكر أن الدنيا عاندته كثيرا، وحين فـتح بـاب خشبي صغير وخرج منه عجوز جعل يمشي مرتكنـا علـى جدران المنازل، لمح خلف الباب مقاعد ورجال وسحب دخان فدخان.

منذ تلك الليلة صار هذا البار قرار طقسه الشتوي علـى الكورنيش. وسرعان ما أقلع عن هذا الطقس. صار يخـرج من منزله قاصدا البار. لم يندهش حين دخل أول مرة، ولـم يجد أحدا يبدو عليه أنه قادم قبله مباشرة. لم يفكر فـي أيـن يذهب الناس الذين يدخلون الشـارع قـادمين مـن الزقـاق القصير. لاحظ أنه بعد دخوله لم يدخل البار أحد. لاحظ ذلك فيما بعد وحتى اليوم. كان الجالسون متبتلين حول الزجاجات

القاتمة وأطباق الترمس والخس والجبن وقطع الخبز. وتحت سحائب دخان السجائر الأبيض والأزرق التـي لا تلتصـق بالسقف الملون، ولا ترتاح على المناضد، كان يسمع ثرثـرة غير مفهومة. وجد نفسه يقف مرتبكًا، فاتجـه إلـى الجـزء الداخلي من البار وجلس على منضدة بعيدة. أتاه الجرسـون فصار أكثر ارتباكًا.

- بيرة.

قال بسرعة كقفزة الأرنب. لكن الجرسون الأريب انحنى حتى لا يسمعه أحد.

- أحضر لك كأس أبيتان يدفئك.

كان بالفعل ينتفض. لم يفهم أن الجرسون أراد أن يعلمـه أن الخمور أنواع، هز رأسه موافقا. جرع كـأس الأبيتـان بسرعة كما يشاهد في السينما حين يكون البطل مقدما علـى جريمة. خرج بعد أن دفع الحساب الذي وجده قلـيلا. لقـد شرب خمسة كئوس. صار دافئًـا حقًـا حتـى أن الأمطـار انقطعت. بلعت البالوعات المياه الثقيلة. صـارت الشـوارع تبرق تحت الأضواء الشاحبة. ازدادت الناس وصارت تمشي في انتظام وتضحك وتدوي ضحكاتها في الفضـاء الرحـب

واستدار سعد زغلول فوق قاعدة التمثال، وأعطـى ظهـره للبحر، وانحنى فاردا جسمه وشاربه وذراعيه فوق المدينـة وابتسم، فتعجب كيف يقولـون أن السـكر "بهدلـة"!. وفـي الأوتوبيس شغله سقوط قطرات من المياه من أسفل السـقف، فصار يتابعها قطرة قطرة منذ أن تظهر وتتبلّر وتكبر حتـى تنفجر وتسقط على أرض الطرقة التي بين صفي المقاعـد. أدرك فجأة أن المرارة التي كان يشعر بها في حلقه، كانـت بسبب عدم تناوله شيئا من المزة. قرر أن لا ينسى ذلك فيما بعد..

* * في منتصف المسافة المغطاة من الرصيف توقـف. منذ بدأ الصيد في هذه المنطقة، كان بعد أن يقطع الرصـيف كله، يعود في الاتجاه المعاكس على الرصـيف المجـاور. يصل إلى نقطة البداية مرة أخرى حيث يتصـل الرصـيفان عبر مربع متسع من الأرض الخالية. في وسط هذا المربـع يجلس عند كشك الشاي. تقدم له "قمر" السمراء، الشاي الذي يحبه. يكون قد اصطاد بعضا من اليمام. كثيرا مـا اشـترت منه يمامة أو اثنتين. واليوم يشعر بحاجة شديدة لشرب الشاي وهو بعد لم ينته من الرصيف. قال لابـد أن الوقـت يمـر

سريعا. إنه يفحص السقف جيدا. يـدرك أن المسـافة التـي قطعها صغيرة. يشاهد العصافير القليلـة ولا يـرى اليمـام. لا تكف الريح عن الصخب. يتعجب من نفسه كيـف يسـير دائما رافعا البندقية وكأنه سيجد اليمام على غرة. أو ربما في كل وقت! كيف أمضى السنين الطويلة رافعا عينيه وبندقيتـه مستعدا للتصويب في أي لحظة؟ أي يقـين بـالفوز؟ ربمـا إحساس بأن الفرصة لا تتكرر. يخفض البندقية ويمشي مهلا. صوت الأوراق التي تدحرجها الريح لا يبتعد عنه. صـوت اهتزاز ألواح الصاج المهترئة بالسقف. هذه الأرصفة قديمـة جدا. الرصيف الذي يمشي فوقه الآن لاشك أقـدمها. إنهـم يسمونه رصيف "الباشا". وهو الوحيد الذي ينتمي باسمه إلى شخص لعله أول من أقام الأرصفة. أن أحدا لا يعرف مـن هو. لكن لابد أنه "باشا" فوق كل "الباشوات". ربمـا يكـون الخديوي إسماعيل نفسه الذي دخلت السكة الحديد في عهده. لكن هذا لا يعنيه كثيرا. إنه يقف بغتة. تماما كمن تذكر شيئًا اجتهد في تذكره ولم يفلح، وحين بدا أنه نسيه، قفز إلى ذهنه وفي وقت لم يستعد له أنه لم ير كشـك الشـاي ولا "قمـر" السمراء صاحبته حين بدأ جولته منذ قليل. لم يمر بهما رغم

أنهما في بداية الرصيف. وهو لا يراهما الآن حقًا. الرصيف الممتد أمامه متسعا خاليا، يلتحم عند بدايته بالأرض المتسعة الخالية الآن من كل شيء. بالأمس كانا موجـودين. المـرأة السمراء التي بدت توقفت عند سن الأربعين منذ خمسة عشر عاما قالت له أمس فقط "لماذا تنظر إلي" بعد خمسة عشـرة سنة أدركت أنه ينظر إليها أو أحست بنظرته. وبعـد هـذه السنين الطويلة أدرك أنه لا يفهم معنى نظراتـه. ضـحك. قالت:

- أحبك يا صياد اليمام. هل تعرف؟

ضحك أكثر. قالت:

- ألست متزوجا؟

استمر يضحك. قالت:

- إنني جادة. آن الأوان أن تفسر لي نظراتك.

لم يستطع. قالت:

- كنت أنا أيضا أنظر إليك لكنك لا ترى.

احمر وجهه. كان بالفعل لا يرى.

قالت:

- أنت لا ترى إلا ما تريد. اليمام.

ووجدها جادة. تحرك في وجدانه قاع جبل. ماذا يقـول. كيف يفسر نظراته التي لا يفهمها. يذكر فقط أول مرة رآهـا وفكر أن المنطقة واسعة. والكشك الصـغير. رواده عمـال وجنود يتغيرون. و"قمر" السمراء تقف وسـط البـرد تبـدو لا تعرف من الدنيا إلا هذا المكان. لم يفكر أبعد مـن هـذا. وظل ينظر إليها. سمراء ذات عينين عسليتين، لم يعرف على طول السنين لها زوجا أو ولدا. تعد الشاي بنفسـها وتقدمـه لزبائنها وتجمع النقود تضعها فوق صـدرها دون أن تنظـر إليها. وصدرها المرتفع في وجهه لا يثير فيه رغبة. لكنه يود لو نام فوقه. لو ارتاح. آه. الراحة على صدر امرأة خصبة. لكن كيف وهي بلا أصل أو فروع. الحنـان الـذي ضـاع. القسوة المعلقة فوق رأسه، تلهبه بسوطها الناري.

* * *

بعد الصراخ الكهفي جاء عمه. لقد مات أبوه وولولت أمه. عفرت وجهها بالتراب. حملت الطين فوق رأسها. لطخت به ثيابها، ووقفت أمام الباب. قالوا جنّت، وأنها تمضي في رحلة مجهولة. رأى عمه يصنع الشاي مثل أبيه. يشـربه مثلـه.

وكذلك يدخن السجائر ويلفها. وسمعه كثيرا يقول لأمه "لـيس لكما غير بيتي".

- أتذكرين أول مرة قابلتك فيها؟

تسكت. يعلو وجهها وجوم. يستطرد أبوه.

- لقد ظننتك جنية.

تعلو وجهها صفرة. يرى كأن دخانا أبيض شفيفا يخـرج من بين شفتيها. يربت أبوه على ظهرها. يضم رأسـها إلـى صدره. يتمتم ببعض أدعية وآيات. يقبل رأس الأم.

- انصرف بسلام!

يخاطب بوداعة شيئا مجهولا. وسرعان ما يعود الدم إلى وجه الأم. تنهض ثقيلة وهي النحيلة. تنشغل في شـيء مـن أمور البيت تفعل ذلك شاردة العينين. بعد قليل تعود خفيفـة الحركة.

- انصرف والحمد لله؟!

يقول الأب. تقول "انصرف والحمد لله". يظل هو لا يفهم. وحين فهم لم يعلق. لكنها بعد أن اختفت تساءل وهو يبكـي "هل يمكن أن يتزوج أنسى من جني؟". "وهل حقا حين رأى أبوه أمه أول مرة كانت جالسة على حافة ترعة في منتصف

الليل عارية ورجلاها في الماء؟". لو كان هذا فـأي عـذاب عرفته أمه ولا يذاع. والأب الطيب يعتقد أنها جنية خرجـت له من الماء.

وفي أقصى الصعيد حيث أخذهما عمه قال:

- نذهب إلى أسوان.

لم ترد. كانت الغشية تأخذها كثيرا.

- هناك مشروع السد والعمل كثير.

لم ترد. لاحظ كثيرا ضيق عمه الذي يقطع الأحجار مـن الجبل. وكانت أمه تنظر إليه كشيء تراه لأول مرة، أو لـن تراه إلى الأبد، فعرف أنها لا تريده أن يتركها لكن الرحيـل ظل يراوده.

صار عمه كثير الشجار مع زوجتـه. يضـرب أطفالـه بقسوة. ثم طرد الزوجة والأطفال، وقال له أن يصحبهم إلـى أهل زوجته في قرية أبيس بأقصى الشمال، فـأذعن. لكنـه أركبهم القطار وعاد من فوره؛ لأنه كان قد رأى أمه تنظـر إلى عمه نظرة طالت أكثر مما ينبغي. فاجأه عمه.

- اختر لك غرفة ونم بها. لقد صرت رجلا.

قالها بجفاء. لم يفهم عمه الفقير أنه لا ينـام مـع أمـه إلا لأنه اعتاد ذلك، فسكن المصلحة غرفة واحـدة، وصـالة صغيرة تمتلئ في العادة بالأخشاب للنيران، وصفائح كثيـرة لا معنى لها، وعشة أمام البيت أو فوقه للدجاج تأكله العرس ويسرقه النمس. وبالليل نهض معتقدا أن كابوسا هاجم أمـه التي أقلقه صوتها المختنق المغمغم. فتح غرفتها فرآها تقـف مستندة على الجدار مذعورة، وعمه أمامها متحفزا شرسا.

- لقد سمعتها فسبقتك. الجني ركبها.

كان أبوه بعد أن تفيق أمه من غشيتها. يضـحك. يقـول "إنهم في شوق إليك. أخوتك يحبونك. أعانني الله عليهم" وكان هو لا يعلق. الآن لا يصدق. عاد وخرج عمه خلفه. قال لها في الصباح:

- يا أم نرحل. إنني رجل ومتعلم وفي السد أعمل.

بكت وقالت:

- أبوك يناديني. انتظر حتى أموت.

كانت المرأة الحلوة قد صارت كشعاع شمس شـتوية إذا لامس الأرض طوته الظلال. وبالليـل صـرخت صـراخًا ضاريا كأنها أسد. ركل بابها بقدمه فـرأى عمـه يضـربها

بوحشية. هجم عليه لكن عمه كان قويا فطرحه فوق الأرض. رأى عيني أمه وهو منطرح. كانت بعيدة عنه كثيرا وكـان بعيدا عنها. انحنى عمه ينهضه ويطيب خاطره.

- لا تؤاخذني يا ولدي. ما ضربتها إلا علاجا.

في غرفته التاع. قرر الرحيل في الصباح أو الموت، وفي الصباح كانت المدن والقرى قـد فتحـت أبوابهـا الأماميـة للغرباء. المساكين الذين تفتح لهم في المساء أبوابها الخلفية!

- أين ذهبت؟

قال متحفزا فقال عمه بلا مبالاة.

- لابد أنها عادت إليهم. أبوك أخبرني أنها ستهرب يوما ما.

قال مستنكرا.

- أين؟

- تحت الأرض طبعا!

قال العم الذي كان جالسا فوق الأرض يأكل إفطاره. كانت هناك عصا غليظة في ركن من الباحة التي تتوسط حجـرات الدار. اتجه إليها بهدوء. وبهدوء عاد بها نحو عمه الذي جعل ينظر إليه مبتسما. هل يمكن أن ينتظر أحد الموت؟ لماذا لـم

ينهض عمه ويهاجمه؟ ارتفعت العصا وارتفع معها. سـقطت فوق رأس عمه فتبعثر في كل مكان دمـا ومخـا وعظامـا مهشمة، وخرج من صدره هم. أحس أنه خفيـف يسـتطيع الطيران في الفضاء مع الطير والسحاب. ما كاد يغادر الدار حتى شدته الأرض. البيوت أمام عينيه منخفضـة سـوداء، الجبل الذي يحضنها يبدو راكزا فوقها. الشمس الغادرة كانت عالية رغم الصباح تنظر إليه. كانت أمامه رحلة طويلة مـن الضنى والشوق.

* * *

* * لم يقل شيئا لقمر أو لغير قمر. بالنهار يصطاد اليمام وبالليل لا يحكي حكاياته لأحد. ليته عرف كيف يفسـر لهـا بالأمس نظراته. لكنها فيما بدا كانت عابثة. لقد سألته:

- هل تعرف كم يمامة اصطدتها؟

لم يرد. تعجب من الهزل الذي يبدو جادا. قالت:

- إني أعرف كم زبونا شرب عندي شايا.

قال.

- كم؟

قالت:

- بالضبط خمسة عشر ألف مليون زبون.

ضحك. قالت:

- ترى كم يكونون يا صياد اليمام؟

ولما طالت ضحكته قالت:

- أنا لم يشرب عندي أحد. يـأتون ويـذهبون. اكسـب فاشتري شايا وسكرا أبيعه لأعود أشتري وأبيع.

قال:

- لا مكسب بالمرة.

قالت:

- هل كسبت أنت شيئا؟ لا أحد يكسب الآن.

واليوم ابتلعت الأرض الكشك وقمر. أو طارا معـا. أمـا زالت الأرض سحرا والفضاء خيالا؟ ما معنى مضي السنين إذن؟ أما لعله لم يعد يرى جيدا؟ إن الذي يـرى العصـافير لا يعمى عن كشك راسخ وامرأة مثل قمر.

* * تفتح الإسكندرية عينيهـا لأبنـاء الجنـوب. تفـتح الإسكندرية فخذيها لأبناء الشمال. هؤلاء يأتون عبر البحـر ويعودون. يلقون أحمالهم من التعب أو الفشـل أو الجنـون. يروون غلة الشبق المكتوم بإرادة فوق موج البحر وظـلال

الألوان السابحة تحت المـاء. يسـبقون الهـواء ويغتسـلون بالمطر. وأولئك يبدءون رحلة الأحمال. يأتون عبر جسـور وقضبان. يضحك بالليل أبناء الشمال في الطرقات المغسـولة فيوقظون منتظري الصباح! يضـحك أبنـاء الجنـوب فـي الحجرات الضيقة عبقها الضراط، وفي المقـاهي الرخيصـة السوداء، حيث تختزل الرجولة في ضربات أكف حامية فوق المناضد، بعد هزائم وانتصارات في الدومينو والورق ينسـى أبناء الشمال الإسكندرية. يعطونها ظهورهم ويفتحون عيونهم على مدن جديدة. والإسكندرية الصـغيرة الطويلـة، ممتـدة كامرأة نائمة ممشوقة لينة القوام، لها عجيزة مترهلة كثيفـة الشعر والقمل. تعطي الإسكندرية أبناء الجنوب جنوبها حيث العفن في الشوارع المتربة الضيقة الموحلة والبيوت المكومة فوق بعضها. يرحل أبناء الشمال بعد أن يمصون لبن الضرع القوي ناصع الحمرة والبياض. تظل عجيزة الإسكندرية مسك الختام لأبناء الجنوب. ليس القادم فوق السفينة كالقادم فـوق أظافره. لافتة معلقة فوق المدينة.

فتحت له الإسكندرية الدافئة جناحيها. ضمت عليه ريشها. لكن بعد أن بيتته في أفقر أحيائها.

كان بحاجة إلى أن يشرب من هواء عذب. يمشي تحـت شمس هادئة. يخرج الشوك من لحمه. يعصر قلبه بماء زهر الريحان. يجلو عينيه بضوء قمر. ولو كان يستطيع العـيش تحت ماء البحر لفعل. فالأضواء التي تنسكب من المصـابيح البيضاء فوق الموج الأسود بالليل. وتنعكس بهيـة كخيـوط الذهب، لابد تجعل الحياة تحت الماء مليئة بالمرح. والهـواء النقي القادم من البحر الذي يلطف غلة القيظ، لابد أنفاس قوم طيبين. وأسفل الماء لن يبحث عن أمه. سـيدلونه عليهـا إن كانت هناك. أو يعيدونه إلى الشاطئ ويقولون كيـف يجـدها بسلام. لم يكن سهلا أن ينسى، ولكن كان عليه أن يفعل. وقد تمر السنون فتأسى الجراح كما يقال. لكن كيف لمن طـاف الجبال والوديان. الحقول والترع. المدن والقـرى. النجـوع والكفور. والمحطات الحزينـة لا تقـف فوقهـا القطـارات إلا لتسير وتتركها في إهمال. من منطقة "القباري" التي استقر فيها في حارة في حي "الكرنتنية". ومن غرفته الوحيدة فـوق سطح البيت المكون من طابقين، والمزدحم بالغرف والسكان، المزدحمون بالضحك والشجار، تعود في السـنوات الأول أن يقطع في أماسي الصيف رحلة قصيرة إلى شاطئ المكـس.

هناك كان يغسل نفسه من كل هم. يترك عينيه تتابعان ضوء الفنار الذي يدور فوق الماء باتساع. يبرق له قوس بعيد مـن الماء. ساحر تقفز فوقه أسماك متلألئة ويختفي مـع دورات الضوء. يسمع خربشات الأصداف والقواقع وأبو جلمبو فـي الصخور الحشفية الملاصقة للشاطئ. يفتح فمه بجوع فـزع ليشرب الهواء كله. ينسى أن في الدنيا بشرا لهم القسمة فـي كل شيء. يعود قبل أن ينتصف الليل. في التـرام العجـوز لا يجد إلا صبيا عاري الساقين ينام على المقعـد وجـواره كرتونة صغيرة بها علب كبريت وأمشاط شـعر لـم تنفـد، وشرطي أكثر استغراقا في النوم. وربمـا رجـلا أو اثنـين ينظران إلى بعضهما في العادة رغم تغيرهمـا! والمحصـل يغالب النعاس فيشعل سيجارة ويجلس دون أن يتقاضى أجره من أحد. فوق السطح أمام غرفته يمضي جزءا آخر من الليل يتابع القمر أو يحصى النجوم، حتى تقف سحب الخريف فوق البيوت فيستعد لجولات الشتاء شرقي المدينة أو للبـار فيمـا بعد.

كان قد حصل على عمل في مكابس القطن بحـي "كفـر عشري". صار "قبانيا" يزن البالات. وكان يبذل جهدا كبيـرا

في أن يمضي أيامه في صمت. يطرد كل هاجس ألم. كـان يعرف أنه لو تكلم سيحكي ويشكو والوجوه حوله متعبة. لكنه كثيرا ما فكر في سكن المصلحة الذي كان سينتقل إليه أبوه. أين هو في الإسكندرية؟ كثيرا ما قرر أن يسأل عنـه. كـان يريد أن يرى "عمال الدريسة" في هذه المدينة. وكثيـرا مـا ضحك حين أمسك نفسه متلبسا بالرغبة في أن يرى أكتافهم.

* * *

- لماذا لكل منكم كتف منخفضة عن الأخرى؟

كان بعد في التاسعة. قال أبوه:

- لأننا نحمل الفلنكات والقضبان على ناحية واحدة.

لم يفهم.

- ولماذا لا تحملون على الناحية الأخرى؟

ضحك الأب وجلجلت ضحكته. قال:

- ذكرتني بالقرية وماذا يفعلون بالحمار إذا عرج بإحدى سيقانه. إنهم يصيبون ساقه المجاورة فينتظم سـيره ويسـهل بيعه.

وعاد يضحك وضحكت الأم وضحك هو وقال:

- يغشون الحمار!؟

قال الأب:

- أجل يغشون الحمار.

لكنه لم ينقطع عن النظر إلى كتف أبيه وأكتاف زملائـه، حتى قال له أبوه مرة أخرى:

- من نوادر العمل في السكة الحديد أن أول عامل قـال للذي بعده، إن العمر طويل، والسكة الحديد لن تنتهي، لـذلك تخصص كتفا واحدة للحمل عليها نصف العمر، والأخـرى للنصف الثاني، ومشينا جميعا على النصيحة.

وضحك الأب أيضا، وضحكت الأم، لكنه لم يضحك لأنه كان يرى أكثر العمال كبارا في السن، وكان يفهم أن الموت لن ينتظر حتى تتساوى الكتفان.

قال الأب مكملا.

- لكن مع العادة تموت الكتف ويسهل الحمل عليها فننسى الأخرى.

* * *

ظلت الصورة تعود إليه. وفكرة أن يرى عمال الدريسـة تراوده. لكنها ابتعدت أيضا كثيرا فيما بعد، لأنه سـواء فـي العمل أو في الحي، كان يسمع حكايات كثيـرة عـن الآلاف

الذين يأتون الإسكندرية كل عام من أقصى الصعيد ويـراهم كل يوم. يقطعون رحلة شاقة على الأقـدام، ويسـمع أبنـاء الإسكندرية يتندرون عليهم، ويقولون أنهم جـاءوا "يعـدون الفلنكات". وهو يعرف أنها رحلة قاسـية، مليئـة بـالجوع والعري والتسول في البلاد والقرى. تبدأ حين يفقد الإنسـان كل شيء ما عدا قوة في القدمين الحافيتين وأمل أبتر. ففـي الإسكندرية يستطيع هذا القادم من الأعالي أن يكون ماسـح أحذية. ثم بائعا للكحك أو "البوظة" التي اختفت في السـنوات الأخيرة بعد أن أصبح شاربوها يركبون السيارات ويشترون الويسكي من المطارات. ثم بائعا للخضار. والبعض ينجح في أن تكون له دكانة صغيرة. أو يصبح تاجرا في الوكالـة لـه شأن. ومنهم أيضا من يبدأ عاملا في البنـاء يصـعد أعلـى الأدوار حاملا "قصعة" الخرسانة علـى كتفـه ولأن بأسـفل القصعة تجويف مقعر، فإنها حين ترفع على الكتف تضـغط عليها بثقل ما فيها، تتنفس الكتف داخل هذا التجويف وترتفع شيئا فشيئا، وسرعان ما يظهر فوقها نتوء محدب متجمد من اللحم والدم. يساعد هذا النتوء في حمـل القصـعة، دون أن يسندها العامل بيده، أو يخشى سقوطها. يصعد بها السـلالم

الخشبية وهو يغني. لقد صارت مع الكتـف مثـل العاشـق والمعشوق! ومن بين هؤلاء العمال من ينجح في أن يصـبح مقاولا لأعمال البناء، ومن يظل بقية عمره يحمل الخرسان، وقبل أن يموت يعود يمسح الأحذية ويمشي حافيا. لكنه كـان يعرف أن رحلة هذه الآلاف لا تطول غيـر أسـابيع قليلـة. رحلته كانت خمس سنوات. لم يكن هبوطه من أعلـى إلـى أسفل. كان في كل الاتجاهات. كيف تكون رحلته سهلة مـن يبحث عن إنسية وديعة، قالوا إنها من الجن؛ لأنهـا كانـت رائعة الجمال. وكان يقول ليس للجن أن ينسل بشرا وادعين. وليس للجن جمالها. ولا صوت له ولا دموع. لكنه وقد وصل الإسكندرية ولم يجدها قرر أن يحبها ويبقى. انفتحت المدينـة الهادئة أمام عينيه، فكرة الأرض التي وراءه، وأدرك أنه لن يستطيع عبور البحر!

المدينة التي تقع على الساحل الشمالي لمصر جميلة كمـا قال المدرس. تذكرها كتب التاريخ والجغرافيـا أكثـر مـن غيرها. لاسمها جرس ورسم جميلان، وهـي لابـد تجلـي النفوس من أدرانها. ولم يعرف صياد اليمام إلا متأخرا جدا، ولعله لم يعرف حتى اليوم، أنه وصل في زمن للحزن فيـه

بساط طائر وبساط مفروش وبين البساطين مقاعـد كثيـرة خالية..

* * لم يجد غير أن يستدير ويكمل سيره. لعلـه يعـرف شيئا عن الكشك وقمر حين يقابل الشرطي أو غيـره. والآن يدور حول نفسه أكثر من مرة رافعا البندقية متطلعـا إلـى الأعالي. ولا يدري أن الجزء المغطى من الرصيف قد انتهى منذ لحظات. يستمر في السير حينا باسـتقامة. ينظـر إلـى "رصيف البصل" إلى يمينه. لا يرى غيـر أجولـة قليلـة. العصافير المتناثرة تطير فوقها وحولها. ينظر إلى اليسـار. صف العربات الفارغة يحجب ما خلفه. يحاول النظـر مـن بينها. لا يرى غير أرض ممتدة تتلوى فوقها قضبان سـوداء وعوارض أكثر سوادا تحتها ومرح هـواء. يتـابع صـف العربات بعينيه يجده قصيرا. حين ينتهي يسـتطيع أن يـرى الكشك الخرساني البعيد الذي يجلس فيه الشـرطي غريـب الأطوار.

* * *

حين أشار إليه ذهب. لم يلفت انتباهه من قبـل. لا هـو ولا الكشك الصغير. إنه معني باليمام المراوغ. وكشك ضيق

منخفض ملتصق بالسور الذي يفصل المنطقة عن المدينة فلا يكاد يبين، كيف يلفت انتباهه؟ كيف يفكر أن بداخله أحدا حتى لو كان شرطيا يرتدي بزة ذات أزرار نحاسية تلمـع تحـت ضوء الشمس. لكنه اتجه إليه. متى كـان ذلـك؟ لا يـذكر بالضبط. لكن ليس لأكثر من أسابيع مضت. ولم يعرف هـل استجاب لأن الشرطي يستطيع منعه من دخول المنطقـة، أم لأنه لا يتأخر في طلب لأحد، أو لأن قدميه تستطيعان حمله. ما يدركه أنه صار في الفترة الأخيرة مطاوعا لكـل شـيء ولا يعاند غير زوجته واليمام، وهو وإن كان يود لو طـاوع زوجته، فهو لا يستطيع أن يقلع عن صيد اليمام، أو ينهـزم للمؤامرة. سينتظر حتى تفرغ الحكاية ويعود اليمام ولو مـرة واحدة!

فاجأه الشرطي بابتسامة قائلا:

- ألا تعرفني؟

ومد الشرطي يده فصافحه مرتبكـا ينظـر إلـى وجهـه الأحمر، وشعر رأسه الأبيض تحت البيريه الأصفر، وعينيه الزرقاوين الصغيرتين. كان الشرطي نحيلا متوسط الطـول ركن بندقيته على جانب من الكشك من الداخل.

- معذرة.

أحضر الشرطي من خلف الكشك صندوقا خشبيا صغيرا. وضعه أمامه مشيرا إلى صياد اليمام أن يجلس بينما جلـس هو داخل الكشك الضيق.

- أنا منذ أكثر من خمسة عشر عاما أجلس فـي الكشـك أراقبك وأنت تصطاد اليمام. ألم تريني؟

ارتبك أكثر.

- معذرة.

ابتسم الشرطي كثير.

- ربما لأنك تنظر دائما إلى السماء.

وضحك. فكر صياد اليمام أن الشرطي لديه حديث طويل، وعليه أن يهيئ نفسه. لكن كيف يراقبه هذه السنين ولا يكلمه إلا اليوم؟ بالرجل مس لا محالة.

- معذرة. غالبا لا أرى السماء. أرى الأسقف.

- أنا أذكر أول مرة رأيتك فيها. هل تذكر كيف كنت؟

ابتسم صياد اليمام قليلا.

- ربما. بالضبط لا.

تابع الشرطي مزهوا فرحان فجأة:

- كنت ترتدي سروالا نصفا وصندلا بنيا. بندقيتك كانـت أصغر. شعرك الأبيض هذا كان أصفر. عينـاك كمـا همـا خضراوان، وانطلق الشرطي في الضحك بينما حاول صـياد اليمام أن يتذكر هل كان ذلك حقيقـة أم لا. إنـه لا يتـذكر ارتداءه لسروال نصف منذ أنهى المرحلة الابتدائية. ولا أنـه غير بندقيته. لم يشأ أن يأخذ الأمر بجدية. فكـر أن يتحـين الفرصة لينصرف. قال:

- معذرة. أنا لا أتذكر شيئا الآن.

قدم له الشرطي سيجارة. ود أن يعتـذر عنهـا. فاجـأه الشرطي:

- أرجوك لا تحاول أن تنهض بسرعة.

أخذ السيجارة مرتبكًا. حاول أن يقول شـيئا. أي شـيء ضحك الشرطي بمرح زائد:

- أنا كنت كما أنا أرتدي ملابس الشرطة!

ضحك صياد اليمام هذه المرة. وتابع الشرطي:

- لكنك كنت قويا. لقد رأيتك مرة ترفع عربة سكة حديـد بظهرك.

أرغم صياد اليمام على الضحك أكثر. قال مندهشا:

- أنا!؟

- أجل حاول أن تتذكر. بعد النكسة بأيام حين كان سلاح كثير يأتي من الميناء وتحمله القطارات، خرجت مرة عربـة بضاعة عن القضيب عطلت الطريق، ولما تـأخر وصـول الونش حاول العمال رفعها، فدخلت أنـت بيـنهم، ورفعتهـا بظهرك وحدك من الأمام، ووضـعتها علـى القضـيبين ألا تذكر؟ لقد صفقوا لك؛ لأن قطار سلاح كـان علـى نفـس الطريق خلف العربة، وخلفه قطارات أخرى، ولم يكن سهلا عمل مناورات وتحويلها جميعا.

حاول صياد اليمام بصدق أن يتذكر شـيئًا ممـا يقولـه الرجل. إنه يتذكر قطارات السلاح الكثيرة بعد النكسة لكنـه لا يتذكر الواقعة. كان فقط كثيرا ما يمرح مع الجنود ويشير إليهم مشجعا. وكان حديث عهد بالمنطقة لم يمض عليه بهـا ثلاث سنين! قال الشرطي:

- تعرف أنني ظننتك "الجبار" ولكني قلت الجبـار كـان أسود ولم يكن يصطاد اليمام..

لم يفهم كيف يقول الشرطي "الجبار" مفترضا أنه يعرفـه. لكن الشرطي قال:

- أنت لم تعرف الجبار.. لقد اختفى بعد الثورة.

ترك صياد اليمام نفسه يسمع. لم يشأ أن يعلق بشيء. فكر أن يشرد بذهنه. لكنه حين شرد تذكر سؤال "قمر" عن عـدد اليمام الذي اصطاده فأحس بالضيق. قال الشرطي:

- كان "الجبار" قويا ضخما ويأتي ليدفع العربات بيديـه، أو يحمل نصفها على ظهره ويسير بها والجنـود الإنجليـز يتفرجون عليه، ويضحكون ويعطونه نقودا. كـان يكسـب. وذات مرة راهنهم بأنه يستطيع شد العربة بعضوه. أجـل. لا تندهش. وطلب منهم جنيه إسترليني لو نجح، وإذا لم يـنجح يضربه عشرة جنود على قفاه.. ونجح. ربط فـي عضـوه طرف حبل، وربط الثاني في العربة، وجرها كأنه قطار. أخذ الجنيه الإسترليني ولم يعرف أحد لماذا أراده كـذلك. لكـن قامت الثورة واختفى الإنجليز. انقطع الجبار.

كان ظهر صياد اليمام إلى المنطقة. وجهـه فـي وجـه الشرطي. خلف الشرطي جدار الكشك. على يمـين الكشـك ويساره وخلفه الجدار العالي الـذي يفصـل المنطقـة عـن المدينة. الكشك قديم. الجدار أكثر قدما. سقط ملاطه وبانـت أحجاره الضخمة التي عشش في شقوقها العنكبـوت.. كـان

صياد اليمام يتابع مسارات الشقوق بعينيه حين هزه الشرطي قائلا:

- طيب. هل تذكر الطفل الذي كان معك؟

- طبعا لا أذكر.

قال صياد اليمام بفتور وراغبا فـي الانصـراف. قـال الشرطي:

- أنا أذكر. وأذكرك أيضا أنه مات.

ابتسم صياد اليمام ساخرا!

- ما أذكره أنه كان معي صديق فقط.

- أنا رأيت زميلك هذا. إنه لم يستمر طويلا. أين ذهب؟

- موجود. انقطع عن الصيد هنا.

لم يشأ أن يقل شيئا غير ذلك عن زميله. قرر أن يـنهض لكن الجدار القديم العالي بدا يتشقق فجأة، وتخرج منه رءوس أفاع ذات ألسنة عديدة، تفح فحيحا أشـبه بصـوت الـريح الأمشيرية. أخفض رأسه وأغمـض عينيـه. أخـرج علبـة سجائره وأشعل إحداها ناسيا الشرطي الذي مد يـده وأخـذ سيجارة لنفسه. قال صياد اليمام:

- معذرة.

قال الشرطي.

- نحن أصدقاء وإن لم نتحدث قبل اليوم. كانـت حادثـة بشعة حقا، وكان الطفل جميلا.

كاد الجدار القديم مستويا وارتفع حتى بدا سيصطدم فـي السماء يبعثرها. – لقد جرى ليحضر يمامـة سـقطت بـين القضبان فدهمه قطار سريع. أنا رأيت ذلك ولم أتكلم..

ضحك صياد اليمام، وأحس أنه يغتصب الضحكة. قال:

- أنا لا أذكر ذلك البتة.

تراجع الشرطي بظهره. أشعل السيجارة. انحنى الجـدار القديم العالي فوق صياد اليمام، وحجب ضوء الشمس وقمـر الليل!

- أنا لا أنس ذلك القطار الملعون. لقد سبق وداس عجوزا مسكينة كانت تبيع الحلوى للعمال. حفرت رقمه على جدران الكشك الثلاثة. انظر.

رأى صياد اليمام رقما محفورا. بدا الشرطي في عينـي صياد اليمام أبله حقا، لم يعرف أنه بدا في عينـي الشـرطي مسكينا.

- أنا أؤمن بالقضاء والقدر. أنت تركـت الطفـل ميتـا ومشيت تصطاد اليمام.

صار الجدار سردابا طويلا متعرجا، يصفر حينا بوميض مجهول، ثم يعود يظلم. وصياد اليمام يسمع صوت الشرطي من بعيد، وهو يسقط في نهاية السرداب في بئر ساحقة، بينما أنفاسه تصعد إلى أعلى. قال كأنه يهمس لنفسه.

– هذا غريبا حقًا!

ارتفع صوت الشرطي.

- ليس غريبا، يحدث مثله كل يوم – ووكزه في كتفـه – لا تحزن. حاول أن تتذكر. كان ذلك منذ سبع سنين وأربعـة عشر يوما – ونظر إلى ساعته – وساعتين فقط.

-.....

- آخر النهار جاءت امرأة تولول ومعها بعض رجـال. أخبرتهم عن الواقعة وأين يجدوا جثة الطفل. ألم يقولوا لك؟

-.....

- لكنك جئت في اليوم التالي. رأيتك تضع المخلاة علـى الرصيف وتدخل إحدى العربات، وكنت أنا عائدا إلى البيت. سرقت يمامة وأعطيتها لابني. كذبت وقلت أنها هدية منـك.

صار يحبك ويحلم أن يكون صيادا، لكنه صـار عطشـجيا يسافر مع القطارات ولا أراه.

-.....

لم يكن صياد اليمام يسمع. انصرف دون كلمـة، ومشـي إلى البيت شاعرا بأنه ما يزال يسقط في البئر العميق. ما كاد يدخل ويضع البندقية والمخلاة الفارغة حتى خـرج. قالـت زوجته:

- ألا تتوجب عليك الراحة الآن؟

كاد يصفعها. إنها تحطم التياعه بهدوئها. آه. هي حقا بلسم للأسى، لكنه يريد الانفجار.

* * *

كانت الإسكندرية في تلك الليلة مدينة مظلمة، اقتربت فيها السحب السوداء من الأرض. لماذا لا تكون الأرض أرضـا والسماء سماء؟ ظل يسقط في البئر، وكان القرار البار. قـال الجرسون الذي رآه حزينا.

- هل ستسألني عن مصطفى؟ حاول أن تنسى. لا يـدخل هذا البار أحد إلا وضحك.

وصار الجرسون يضحك.

- هل ستعود إلى الصمت من جديد؟ لقد ظللـت سـنينا طويلة تجلس وحدك لا تحدث أحدا.

حاول أن يقرأ شيئا لكن الجرسون كان غاضـبا بالفعـل ويقول:

- هل تصدق أنه يمكن أن تقوم صداقة هنا. إنهم يـأتون اثنين وثلاثة وعشرة ويخرجون واحدا فواحد.

علق بصره متطلعا إلى الجرسون الذي بدا لـه لا يفهـم شيئًا. ارتبك الجرسون فغير الحديث.

- ما رأيك في الفودكا؟ أول مرة تدخل البار. هأ هأ هـأ. اختلفت الحكومة مع الأمريكان فقطعت البيبسي والكولا. الآن اختلفت مع السوفييتي. أكيد ستقطع الفودكا. هئ هئ هئ. مع أنها كانت دائما شحيحة. أي صداقة كانت دون الفودكا؟!

وانصرف الجرسون ضاحكا فضحك صياد اليمام.

* * بالليل كان الشرطي يضحك محتلا وجـه زوجتـه الجميل. لكنه لم يستطع أن يمتنع عن لقائه مرة ثانيـة. ظـل يلقاه بعد ذلك وحتى أمس. وسوف يلقاه اليوم بعد أن ينتهـي من هذا الرصيف، وسيسأله عن "قمر". لكن صف العربات لم ينته بعد ولا يستطيع أن يراه من بينها. إن وخـزات البـول

المتجمع في المثانة فجأة تضيق أنفاسه. سيدخل هذه العربـة المفتوحة ليفرغه. وبعد أن ينتهي الرصيف سيذهب إليه دون أن يدعوه. لقد لاحظ أنه لم يذهب إليه من قبل إلا إذا نـاداه أو أشار إليه. وإنه حين يمر من بعيد رافعا ذراعه بالتحيـة، كان الشرطي يرفع ذراعه أيضا ولا يناديه. يبدو كأن كليهما يعرف أنه لا رغبة عند الآخر في الحديث أو اللقاء. وحـين يذهب إليه بنفسه، أو بعد أن يشير إليه الشرطي مـن بعيـد، كان هذا ينهض ويقبل عليه هاشا يأخذه من يده ليجلسه فـي محبة بالغة، ويبدو أن كليهما في حاجة إلى أن يسـتمع إلـى الآخر ويلقاه.

لم يعرف صياد اليمام، لماذا كلما فكر في الابتعـاد عـن الشرطي أو تجاهله، دفعته قدماه إليه. وكان كلما عـاد إلـى منزله، نظر إلى وجه ابنه الصغير، الذي يطلب منه كل يوم أن يصحبه ليصطاد وتنهره زوجته. لكن الشرطي لم يعد إلى حديثه الأول. لم يذكر بعد ذلك شيئًا عن الطفل الذي قال إنه مات تحت عجلات القطار. طال حديثه عن المنطقة، وخاصة عن اللصوص. قال إن المنطقة خالية منهم تقريبـا. وبـرغم وجود فتحات كثيرة في الأسوار المحيطة، فإنها ليست مـن

صنع اللصوص. وصنعها في الغالـب أشـخاص يريـدون اختصار الطريق، وليس لديهم صبر للذهاب حتى البوابـات الرئيسية ليخرجوا منها. وأنه لا يوجد بالمنطقة غير بعـض "المساكين" يترزقون من جمع الغلال الساقطة على الأرصفة، مثل "هند" وأمها. وهؤلاء تتركهم الشرطة، كما تترك عمـال الدريسة وهم يعودون من العمل، حاملين أخشابا وألواح صاج قديمة. فهم يخبزون بالخشب ويشعلونه للتدفئة، يقيمون بألواح الصاج عششا للدجاج.

- أظن أن سكن المصلحة قريب من هنا.

- على بعد أمتار قليلة. هل تعرف أحدا هناك؟

لا. لا. إنني كثيرا ما أراهم يعملـون ولا أعـرف أيـن يسكنون.

كان صياد اليمام صـادقا. لقـد خـرج السـؤال دون أن يقصده. مضت سنون كثيرة على اليوم الذي اهتم فيه مـرة. ثم إنه رأى أعمالا ورجالا أتعب. والإسكندرية ليست سببا في موت أبيه أو ضياع أمه. وهي لم تقس عليه. إنه يعيش فـي قاعها ولم يدخلها. وهو لم يعرفها ولم تعرفه. يرى كالسـائح ويسمع كالغريب. وقد جاء لا يشعر حتى برغبة في الأكـل،

رغم أن يوما كاملا قد يمر دون أن يأكل غير مرة واحـدة. وفوجئ بالشرطي يقول:

- غريب أنك تصطاد هنا منذ أكثر من خمس عشرة سنة ولا تعرف المنطقة.

- إنني أعرف الأرصفة وهذا يكفي.

وضحكا. فكر الشرطي قليلا وقال:

- حقا. هل تعرف أني مثلك لا أعرف غير هذا الكشك؟

استغرب صياد اليمام.

- ماذا تقصد؟

- أنت تعرف عملك. وأنا أعـرف عملـي. وعملـي أن أجلس في الكشك أراقب ما يحدث أمامي.

وصمت قليلا وقال:

- هل تعرف أن المساحة التي أراقبها تقل عاما بعد عام؟

- هل تعني أن عدد الشرطة يزداد؟

ابتسم الشرطي.

- لا. لست ذكيا يا صياد. قليلون يقبلون علـى الشـرطة الآن.

تحير صياد اليمام قليلا لكنه وجد الحديث ممتعا.

- إذن لندرة اللصوص؟

- لا – وضحك الشرطي – إن نظري يضعف مع الأيام!

ابتسم صياد اليمام وازداد الشرطي ضحكا وقال..

- أرغب في الاستقالة.

- لهذا السبب؟

- إنها مهنة لا معنى لها.

فكر صياد اليمام قليلا. كثيرا ما يعاد الحـديث ولا يعـود الزمن. لقد حدثه صديقه الذي علمه الصيد، عن شيء مثـل هذا من قبل، لكن أين هو الآن؟ لم يشأ أن يفكر أكثـر مـن ذلك. لكنه تساءل راغما ترى ماذا سيقول الشرطي أيضا؟ - في منطقة كهذه واسعة مكشوفة لا يسرق أحد. هل سـمعت عن أحد سرق قطارا، أو جر عربة سكة حديد إلى المدينـة. لماذا أجلس أنا إذن هنا؟

ابتسم صياد اليمام. قال:

- لكنك تستطيع أن تترك الكشك وتجلس مع أي أحد..

- ومن يؤدي عملي؟

ارتبك صياد اليمام. لم يستطع أن يجيب. قال الشرطي:

- خمسة وثلاثين عاما أمضيتها داخل الكشك. حتى الشاي أصنعه بنفسي. كان بالفعل لديه موقد كحولي صغير يظهـر تحت مقعده. واستطرد:

- هل تشرب شايا؟

- شربت قبل أن آتيك.

- ها. عند "قمر".

وضحك.

- هل تعرفها؟

- زملائي يتحدثون عنها كثيرا. أكثرهم حـاول الـزواج منها ورفضت. هل تعرف أني لم أرها قط؟

* * *

بعد قليل سيرى الكشك الخرساني والشـرطي وسـيذهب إليه. ترى هل سيخبره عنها؟ هل عرف عنهـا شـيئا مـن زملائه.

تحط أمامه جماعة قليلة من العصـافير. تلـتقط بسـرعة حبات قمح مبعثرة. تطير في بهجة متجمعة ثم ما تلبـث أن تتفرق. بعضها طار مع الريح. بعضها ضد الريح. الـبعض إلى الأرصفة الأخرى. ينتشي صياد اليمام للحظـات وهـو

يسمع رفيف أجنحتها. لماذا طارت العصافير حـين اقتـرب منها؟ إنه يصطاد اليمام فقط. لابد أنها تراقبه طوال السـنين الماضية. تراه يصطاد اليمام ولا تصدق أنه لا يصـطادها. تنتظر اليوم الذي يصطادها فيه ولا يفعل فلا تصدق. ربمـا تفكر أنه يتركها يوما ليوم آخر. لابد أنها عاشت في ترقـب وخوف. ولابد أنها نقلت ذلك لكل العصافير ولقنته لصغارها.

ينتبه صياد اليمام لأول مرة، إنه إنما يسير فـوق الجـزء المكشوف من الرصيف، ولا حاجة به لرفع بندقيته، والنظـر إلى الأعلى. لقد ظهرت الشمس فجأة، وانجلت السحب. راقت صفحة السماء، وخفت حدة الريح. وهو يشعر الآن بـبعض الدفء يسري فيه، وفي الجو، وينتهي صف العربات فينظر، ولا يرى الكشك الخرساني البعيد ولا الشـرطي. لا يصـدق ويقف.

بالأمس أخطأ وسأل الشرطي:

- لماذا لم تطلب نقلك إلى مكان آخر؟

- نسيت.

وانطلق الشرطي في ضحك عربيد.

- كل يوم أفكر في ذلك بالليل. يطلع النهار أنسى.

واستمر يضحك.

- ابني الذي صار عطشجيا يسافر مع القطارات يرسـل إلي خطابات من البلاد، ويقول إنه كل ليلة يفكر في العـودة وزيارتنا، ويطلع الصباح فيركب القطار وينسى.

وتندت عيناه بالدمع.

- أكثر من ثلاثين عاما أنسى – وبعد لحظة – المشـكلة أني لا أعرف عملا آخر. زملائي على الأرصفة يجدون من يتحدث معهم وأنا وحدي أقاوم الذباب. إنني أتسـلى بحشـو البندقية بالرصاص وتفريغها وعده، ثم حشوها وتفريغها وعد الطلقات من جديد، مع أنها عشر طلقات لا تزيد ولا تـنقص ولا تتغير.

فكر صياد اليمام في "قمر" كيف سألته عن عـدد اليمـام الذي اصطاده فسمع الشرطي يقول:

- بالمناسبة هل تحصى اليمام؟ إنني لا أراك تصطاد منذ سنوات. هل أحصيت ما اصطدته من قبل؟

ارتبك صياد اليمام. هل يكون للسؤال معنى؟ لقد سـمعه حتى الآن مرتين وما يزال في منتصف اليوم. قال الشرطي:

- أنا صرفت من السلاحليك حتـى الآن حـوالي مائـة وثلاثين ألف طلقة. أيام الجمع والعطلات تجعل العدد غيـر دقيق.

ابتسم صياد اليمام وهو يشـعر أن الصـندوق الخشـبي ينخفض به. قال الشرطي محولا الحديث:

- لقد رأيت الجبار أمس.

لم يرد صيام اليمام.

- رأيته يخطب في سرادق كبيـر أمـام جـامع سـيدي القباري. لقد رشح نفسه في انتخابات مجلس الشعب. كيـف لا تعرف وأنت تسكن في الدائرة.

وانطلق يضحك فجأة بينما قال صياد اليمام في غيظ:

- لكنك تقول إنها نفس الطلقات لم تتغير؟

أجاب الشرطي على الفور:

- لكن الأيام تختلف. أليس كذلك؟

وبدا حازما كأنه يصدر أمرا.

* * *

يفتح صياد اليمام عينيه على اتساعهما ولا يراه أو الكشك. شيئا فشيئا تعود السحب تقف بين السماء والأرض. يتراجـع

الدفء. يرتعش قليلا. يرى الدرج في نهاية الرصيف. يهبط. يعبر القضبان الكثيرة والعوارض الملطخة بالمازوت الساقط من القطارات والأسلاك المرتخية. يرى هذا كل يوم ولا يهتم له. اليوم يشعر كأن القضبان تلتوي صارخة، تريد الفرار من المسامير القاسية، التي تربطها في عوارض حديدية وخشبية، حفر لها عمال الدريسة في الأرض، ووضـعوها وردموهـا ودكوا التراب والزلط حولها وتحتها فصارت هـي والأرض والقضبان كتلة واحدة، ووضعا أبديا لا فكاك من أسـره. أي سؤال سمعه أمس وما معناه؟ وما معنى أن يختفي الشـرطي وقمر والكشكين؟..

في لحظات، وبغيظ لا مثيل له، يصبح غير معن بشـيء! ويقترب من "رصيف القصب". يصعد فوقه ويقف متـرددا. كان هناك شيء يفعله قبل أن يصعد هذا الرصيف. ماذا كان يفعل؟ لا يذكر. رأى منذ قليل شيئا غير الذي كان يراه كـل يوم. ماذا رأى وماذا اختفى أيضا غيـر قمـر والشـرطي؟ لا يذكر؟ هل يعود إلى البيت الآن؟ الرصيف الطويل يبـدو مثل كفن. وخال تماما من القصب، ليس فوقه إلا مصاصات قديمة أدهشه أنها كثيرة لدرجة جعلته يتخيل أن جمعـا مـن

الملائكة أو الجن هم الذين امتصوا القصب كله بالليل. وإذا لم يكن هناك جن أو ملائكة فلابد أن أهل المدينة كلهم اجتمعوا الليلة الماضية فوق الرصيف يمصون القصب. يقـف فجـأة ويستدير جاعلا بقية الرصيف خلفه. ينظر إلى المنطقة كأنـه يقف فوق جبل.

هذه المنطقة هي التي يأتي إليها دائما وليست غيرها. لابد أن يدرك ذلك جيدا وإلا التاث. لن يترك شيئا يفعل به ذلـك. يشمخ في وقفته كجندي يعلن عن وجوده.

الفضاء الرحب ممتد أمامه مكللا بالسحب. البـرد صـار ينعشه ولا يرعشه. وعليه أن ينظر جيدا. سوف يرى ما لـم يره. سيذكر ما نسيه. لا يمكن أن يختفي كـل شـيء مـرة واحدة. حتى اليمام سيظهر بعد قليل. وتطول وقفته..

* * حين وصل إلى الإسكندرية لم يكن يعـرف أن فـي الدنيا يماما. فمن قبل لم يكن ينظر إلى السـماء. وأول مـا واجهه من الإسكندرية فضاء أبيض رائق، وبهلوان يتجمـع حوله الناس في ميدان المحطة. في حـي الكرنتينـة كانـت الطرق غير مرصوفة، والمنازل متباعدة، وسـيارات النقـل المارة تثير الغبار ولا يرى بين الحين والآخر غيـر بعـض

عصافير تقف فوق أسلاك الكهرباء الهوائية، وأطفال يقذفونها بالحجارة بأيديهم أو بالنبال. ازدحمت البيـوت والطرقـات فطارت العصافير رغم أن الأسلاك ازدادت في الهواء. فـي عمله بمكابس القطن لم ير يمامة وإن سمع الكلمة تتردد طول النهار في أفواه الرجال يصفون بها النساء. لكنه رأى يومـا زميلا له سبقه في العمل "قبانيا" مثله، قادمـا ومعـه بندقيـة صيد. ثم رآه يأتي ويذهب بها كل يوم والمرة الوحيدة التـي تحدث فيها مع أحد في غير أمور العمل، كانـت مـع هـذا الزميل الذي قال:

- طالما تعيش وحدك مثلي لماذا لا تصطاد اليمام؟

لم يفهم كيف يرتبط صيد اليمام بالوحدة. لكن الأمر بدا له معقولا. اشترى بندقية صيد ولم يصطد شيئا في اليوم الأول. حين أتى إلى العمل صباح اليوم التالي كانت دهشته غامرة. لأول مرة يرى أن تحت "كوبري التاريخ" المجاور تقع ورش غريبة، لصناعة سفن صغيرة، لترعة المحمودية الممتدة تحت الكوبري. وأن اللون الأسود الكثيف حوله هو ملابس النساء العاملات. وأنهن رغم تعلق ندف القطن بثيابهن لا يفكرن في تغيير لونها. وأنهن يبدين وهن خارجات من العمـل للغـداء

أو الانصراف كطوابير جنازة صغيرة. لكن الثياب السـوداء تكشف أيضا عن وجوه بيضاء حسنة رغم الفقر. ويلاحظ أن عمال الفرفرة بالمحلج، تبدو صدورهم مضغوطة إلى الداخل، ويبدون منحنين إلى الأمام. أنهـم لا يحملـون شـيئا فـوق ظهورهم وليسوا محدبين، لكنهم مصدورون فيما يبدو. ورأى أن الجميع حفاة. يأتون، يعملون، ينصرفون كـذلك. راعـه مشهد الغداء حين تُفرش الأرض حول المكـابس والمحـالج المنتشرة، بالتجمعات الصغيرة من النساء والرجـال. تبـدو جماعات النساء كأكوام سوداء تنبثق منهـا زهـور بيضـاء جاذبة. جماعات الرجال مبعثرة لا هوية لهـا. وربمـا هـم لا يتحدثون خلال الأكل كما تفعل النساء. على يسار كوبري التاريخ أقيمت بعض خيام قصيرة من الخيش تحتها حلاقـون يشم رائحة صابونهم الرخيص وبعض باعة الجبن القـريش والقديم والفول والفلافل والخبز الشمسي. فكـر أن هـؤلاء الباعة لابد يعرفون أن يومية الرجل خمسة وعشرون قرشـا والمرأة عشرون. ولا يتقاضى الأربعين قرشا إلا من هو مثله من القبانية والملاحظين.

كان الباعة يقدمون الطعام في أطباق قذرة من الألومنيوم والصفيح. ولم يعرف صياد اليمام أنهم سيلجئون إلى طريقـة غريبة بعد خمس سنوات مع الارتفاع المجنون للأسـعار إذ سيفتحون "الرغيف الشمسي" ويغمسون في وعاء المش فرشة كانت أصلا مخصصة لحلاقة الذقن، ثم يدهنون الرغيف من الداخل بالمش مستخدمين الفرشة. ذلك أنه سيكون قد هجـر العمل، وفي طريقه إلى البار لن يرى شيئًا لأنه يذهب مساء. لكنه سيعرف بعد ثمانية أو تسع سنوات أن الباعة والحلاقين اختفوا من المنطقة تماما، لظهور أعمال أخرى أقـل جهـدا وربحها بلا حساب!

ذهب مع زميله في اليوم التالي مدركا أنـه لـن يمشـي كثيرا. سيعبر فقط شريطي الترام ويدخل في شـارع واسـع قصير ينتهي ببوابة حديدية ضخمة، يعبرها فيجد نفسه أمـام منطقة واسعة من الأرصفة والقضبان والقطارات.

علمه زميله أسماء الأرصفة. قال إن كل رصيف اشـتهر بما يأتي فوقه من بضائع أو ما يغلب عليـه منهـا، ماعـدا رصيف الباشا الذي لا يستخدم كثيرا، والذي يمكنه الوصول إليه من بوابة أخرى أقرب إلى منزله.

قال:

- ألا يكون الصيد إلا فوق الأرصفة؟

قال زميله.

- إذا توغلت للأمام ستجد بعض أشجار. لكن الفرصة هنا أحسن. وإذا توغلت بعد الأشجار لن تجد إلا قضـبانا تـدور حول الإسكندرية.

ابتسم وقال:

- إنك تعرف المنطقة جيدا.

قال زميله:

- كنت أعمل بالسكة الحديد.

كان يرى زميله مقبلا في العمل على الفتيـات والنسـاء. ويراهن مقبلات عليه. ابتسم وقال:

- لا يوجد نساء بالسكة الحديد.

قال زميله مقتضبا:

- كنت خفير مزلقان.

وجعل يتابع يمامة تنتقل من عارضة إلى أخرى. قال:

- وماذا في ذلك؟

أشار إليه زميله أن يصمت. في لحظات قليلـة صـوب بندقيته وأطلقها. طارت اليمامة مجروحـة تحـت السـقف وسرعان ما سقطت. حين أمسكها وجدها تلفظ أنفاسها. أخرج زميله مطواه وذبحها ووضعها في مخلاته. قال.

- عليك أن تذبح اليمام. لا تتركه يتعـذب ليعـيش لأنـه سيموت وأنت لا تدري!

ومشيا يبحثان عن اليمام. شرح زميله كيف كـان عملـه لا معنى له، حيث كان يقضي النهار جالسا منتظـرا ثلاثـة قطارات يعرف مواعيدها هي التي كانت تمر فوق المزلقـان فيغلقه أمام العربات والسيارات التي كانت قليلة. لكنها مهنـة سهلة. لماذا تركتها؟

وجد نفسه يسأل. قال زميله:

- قلت مملة. المزلقان كان بعيدا عـن المدينـة، وكنـت أنتظر وحدي في كشك خشبي صغير، في منطقة خالية مـن كل شيء، إلا بضع أشجار متفرقة ومتربة دائما، وبين القطار والقطار وقت طويل. كنت أفكر كثيرا وكنت أصاب بالضيق.

استغرق حديث زميله بقية اليوم وأكثر الأيام التالية. فـي ذكريات مؤلمة ومضحكة.

كان أبوه يعمل على "معدية" فوق ترعة المحمودية وكانوا يسكنون في "غيط العنب". وحين جرت أول انتخابات لمجلس الأمة بعد الثورة طافت عربات في الشوارع تدعو الناس أن يعطوا أصواتهم بحرية لأول مرة، وتـدعو النسـاء بصـفة خاصة أن يعطين أصواتهن. يوم الانتخابات خرجـت أمـه مصدقة، ومعها حشد من نساء الحي لا يعرفن حتى أسـماء أطفالهن. حذر أبوه أمه كثيرا من ذلك لكنها ركبت رأسـها. أمضى أبوه يوم الانتخابات في البيت وخرجت هي. وكـان الحي منقسما بين مرشحيه الاثنين. "الجعافرة" يؤيدون مرشحا "والجهانوه" يؤيدون الآخر. والفئتان مقتتلتان أصلا بالصـعيد وكثيرا ما يقتتلا في غيط العنب. قامت معركة بينهمـا عنـد باب إحدى اللجان المجاورة لنقطة البـوليس، طـارت فيهـا زجاجات البيبسي قبل أن تنقطع من البلاد، فطالـت واحـدة رأس أمه فسقطت تحت الأقدام تنزف حتى ماتت.

أما أبوه فقد حزن كثيرا عليها، وأحس بذنب كبير لأنه لم يمنعها بقوة، فجلس معظم وقته في البيت يقرأ القرآن ويدعو لها. ولأن شقتهم في الدور الأرضي، كانت نوافذها تطل على الشارع بحيث إن السائر فيه لو شب قلـيلا علـى أصـابعه

يراهم. والشارع رئيسي يمر منه غرباء، لـذلك كـان أبـوه حريصا على أن تظل النوافذ مغلقة معظم الوقت. لكن حدث أن بدأ "الأوتوبيس" السير في الحي لأول مرة. خرج النـاس جميعا إلى الشارع وصعدوا فوق الأسطح يتفرجون. فتح أبوه النوافذ وتركه يتفرج وإخوته. كان الأوتوبيس كلما أتى حيـاه الناس وصفقوا كلما عاد. فجأة خرجـت إحـدى العجـلات الخلفية من أحد الأوتوبيسات وظلـت تـدور جاريـة فـوق الأرض منحرفة قليلا إلى الرصيف كانت كبيـرة ومندفعـة فاصطدمت بحافة الرصيف مما أدى إلى ارتفاعها عاليا مـع استمرار اندفاعها إلى الأمام. بعد النقطة التي اصطدمت بهـا مباشرة كانت نوافذ شقتهم. دخلت العجلة المرتفعة من إحدى النوافذ، وسقطت فوق أبيه الذي كان يصلي فمات في الحال.

وغير ذلك كثيرا لم يشأ أن يقصه. قال أنه كره العمل لأن الوحدة وطول الوقت كانا يدفعانه للتفكير فيما مضى. اشترى بندقية رش وجعل يصطاد العصافير التي تأتي لتقـف فـوق شجرة مجاورة. وحين لا تظهر العصافير كان يمشي قلـيلا في المنطقة الواسعة الممتدة، يبحث عنهـا فـوق الأشـجار المتربة، ويعود مراعيا أن لا يتأخر عن مواعيد القطـارات.

ذات مرة ظل يمشي فوجد نفسه في بيته. في الصباح حققـوا معه وفصلوه. في ذلك اليوم بالذات وقعت حادثة. اصطدمت سيارة نقل بقطار. وفيه بالذات كان القطار عسكريا! وجـاء في خطاب الفصل من العمل "إهمال ترتب عليه تأخير قطار على درجة عالية من الأهمية". وضحك زميله وقال:

- سألت هل هناك حرب ولا أدري فقالوا في اليمن.

وضحك أكثر قائلا:

- لم أكن أفكر أن قطارا يمر في البقعة التي أجلس فيهـا يمكن أن يؤثر في حرب تجري في اليمن!

طال الزمن على حكايات زميله، لكنه لم ينسها أو ينسـاه. كثيرا ما تساءل بعد أن اختفى فجأة لماذا حقا علمـه الصـيد وتركه وحده؟ لماذا اختفى ولم يقل؟ وحين لم يعـد يتسـاءل كثيرا، وبدا أنه اعتبر لقاءه بزميله عابرا فوجئ بخطاب منه. كان ذلك منذ خمس سنوات. بعد عشر سنوات تقريبـا مـن اختفائه. قال له في الخطاب: "أرجو أن تكون نجحت فـي أن تحتل مكاني بين النساء في العمل" لم يكن يعرف أنه تـزوج وهجر العمل مكتفيا بصيد اليمام. وقـال "أرجـو أن تكـون متقدما في الصيد" فبدا لا يحسب السنين. في خطاب آخر قال

"لعلك لم تمل المنطقة" فبدا قد نسى سحرها الذي صار يشـد صياد اليمام كل صباح حتى الآن رغم عقم السنين الخمـس الماضية. ثم أرسل إليه خمس خطابات كانت كلهـا عبـارة طويلة تقول "إنني أصطاد في منطقة غريبة. يمامها عجيب. وإذا استطعت أن تهجر الصيد عندك فالحق بي". فكر صياد اليمام كثيرا في هذه العبارة. لم يفكر أن يذهب إليه. فكر فيها أكثر بعد أن انقطعت الخطابات تماما. قال في نفسـه لمـاذا لا يأتي زميله إليه. يعرف أن زميله لو أراد شيئا فعله. ربما لأنه لا يرد على رسائله. لكنه تذكر أن زميله لم يـذكر لـه عنوانه قط في أي من الخطابات. حـاول كثيـرا أن يتـذكر ملامح هذا الزميل ففشل. لم يعد يعرف ما إذا كان قصـيرا أو طويلا أو بين بين. أسود أو أبيض أو بين بين. تساءل هل حقا كانت حكاياته حقيقية. هل هو الذي يرسـل إليـه هـذه الخطابات. لا يذكر أن زميله عرف عنوانه مرة. كيـف إذن عرفه الآن؟ لقد جعله حديث الشرطي يتذكره بعد أن أهمـل التفكير فيه نهائيا. هل كان زميله حقا من البشـر؟ الفضـاء حوله الآن متوقف عن الحركة. البضائع قليلة فوق الأرصفة ولم يظهر أحد. العربات عجوز عجوز. وما يزال يقف وقفة

الجندي الذي يعلن عن نفسه. لكن لماذا يكون زميله كاذبـا؟ ولماذا يكون صادقا!؟ كانت "قمر" حقيقة حتى أمس وها هـي اختفت ومعها كشك الشاي، بيتها. كذلك كان الشرطي الـذي ما عرفه إلا متأخرا ليحدثه بأشياء غريبة. لكن ما يزال فـي اليوم بقية وقد يعرف شيئا عنهما. وقد لا يعـرف. لا يقـين إذن. لا يقين. حتى صوت الريح التي عادت تشتد لا يعرفه. ولا يعرف ما إذا كان قول زوجته في الصباح عـن البـرد الشديد حقيقة أم وهما. ولكن ماذا عساه قد نسى وحـاول أن يتذكره. لا يهمه ذلك ولن يهمه فيما بعد!

يلتفت ليمشي فوق رصيف القصب. يحكم السترة ويرفـع البندقية وهو لم يزل في بداية النصف المكشـوف! لا يـرى يماما وهو ما خرج إلا للصيد. لا يسمع إلا صـوت الأوراق تطيرها الريح. لكن ما يزال هناك يقين بالفوز!

* * يكتشف صياد اليمام أن في قلبه جرح اختفاء زميله، وخطاباته الغامضة. علمه الصيد لسبب لا يعلمه، بينما قـال هو في نفسه حيلة جديدة بها ينسى. وكانت الأيام طيبة معـه فابتعد الماضي كثيرا كثيرا ولم يعرف أحد عنه شـيئا حتـى زوجته. لكنه يعرف أنها لم تصدقه، حين قال إنه فقد والديـه

بالموت، مثل كل الناس. كان يشعر بها تتابعه في شـروده، وكثيرا ما أحس بالضوء منعكسا من عينيهـا إلـى عينيـه ووجهه، ولا يبدي تجاوبا. كان هواء البحـر ورذاذ المـوج وسرعة قدميه في أماسي الشتاء تغسل قلبه وتجلـو عينيـه وينسى. كذلك كانت جولة الصيف المسائية. حتى بعد أن أقلع عن ذلك واكتفى بجلسة البار لم ينهزم. استمرأ دفء الخمـر وإنعاشها وقاوم حزنها. لم تتم له علاقة بـأي مـن الـرواد إلا متأخرا جدا، ومرة واحدة. ظل يـذهب وحيـدا ويجلـس وحيدا. يتأمله الجرسون ويقول ضاحكا: "أنت مثل الله تجلس على الكرسي وتحاسب البشر!".

كان في البداية يجلس صامتًا خائفًا إلى حد كبير. يتحـدث إلى الجرسون باقتضاب. يطلب الخمر الذي صـار يحبـه. الروم والبراندي في الشتاء، البيرة أو الذبيب في الصيف. بعد ذلك اختلف نظامه حين صار يتحدث بلا خوف، ويجلس بلا مبالاة. صار الجرسون يعرض عليه الأصناف ويطلـب أن يجربها. لاحظ مع مضى الأيام أن الخمر تجلب نوعا خبيثـا من الحزن يتسرب إليه مع كل كأس. ترك نفسه لذلك الحزن العجيب الذي ساعد عليه دفء شتاء الإسـكندرية ورطوبـة

صيفها. لكنه ما لبث أن قاومه وطارد كل فكـرة تحـاول أن تطل من عين الماضي الذي يريد أن يسحقه. صار يشـرب ويعرف أنه سيحزن ويجاهد أن يسافر بعيدا عـن الأسـباب القديمة. يترك صدره ينقبض. وجهه يتقلص. إذا دمعت عيناه لا يبكي ولا يمنعهما! يتفرج على نفسه ويقول في عزم "لـن أموت أبدا. لن يقتلني شيء. والدنيا لن تدور دورة كاملـة". وكان رغم الهزال الذي يلحق بجسده، يريد أن يمسك السماء بقبضته يسحقها في الأرض. أجل. كثيرا ما فكر فـي ذلـك وهو جالس تحت شجرة التوت الضخمة الرابضة بعد نهايـة رصيف الباشا بقليل. كان يرتاح تحت ظلالها بعد أن ينتصف النهار. ينظر إلى الأكشاك الخشبية الثلاثة أمامها والتي بهـا بعض عمال الحركة. يفكر في أنـه قـوي ولـن يستسـلم. بالمنطقة أكثر من شجرة متفرقة. لكـن هـذه ذات جاذبيـة سرية.. أوراقها العريضة أكثر اخضرارا. تنشر سكينة على الأرض هو أحوج ما يكون إليها. شجرة تكاد تتحدث بحنـين دافق. حين يجلس تحتها يحس كما لو كان يضع رأسه علـى صدر الكون. تصبح الدنيا أما عطوفا. يتمدد علـى الأرض مستندا بظهره إلى جذعها الضخم البارد، واضـعا البندقيـة

جواره، مرخيا قبعته فوق عينيه. لا ينـام. لا يحلـم. فقـط يرتاح. يتسرب التعب من أصابع قدميه وقلبه! إذا تساقط فوقه بعض التوت الأحمر أو الأخضر يأكله. يأكل الطعـام الـذي أعدته زوجته. وكثيرا ما فكر في "قمر". إنها رغـم جمالهـا وجسدها الأسمر لا تثير فيه رغبة جنسية. يفكر في وضـعها وحيدة تنام في كشك وحيد في خلاء واسـع كأنهمـا نبتـان شيطانيان انشقت الأرض عنهما، أو قذفتهما السـماء. قـرر كثيرا أن يقلع عن النظر إليها. إنها الوحيدة التي تـرده إلـى الماضي. إنه، حقيقة لا يعرف ما إذا كان يكرهها أم يحبها.

في السنين الأولى فكر كثيرا في زميله الذي اختفى. حين أتت الخطابات أحس ببعض الاطمئنان. لكنه فكر أيضا فـي طريقة زميله في الحديث إليه. واليوم يدرك شيئا يبتهـل أن يخطئ فيه. لقد أوقعه زميله في شراك جميلة. إنـه لا يـأتي بحثا عن اليمام. فهو لا يستطيع أن ينقطع عن المجيء حتـى بعد أن غاب اليمام. أي صياد كان لابد يهجر المنطقة فـور نضوبها من الصيد، وهو يتمسك بحبال واهنـة. مـاذا فـي المنطقة من سحر لتشده إليها هكذا. لماذا يأتي؟ قمر التي لـم تتحدث إلا بعد خمسة عشر عاما؟ الشرطي الذي شكا جرحا

لا يدركه وإن أحس بباب أغلقه ينفـتح عليـه!؟ الأرصـفة؟ العربات؟ البضائع؟ العصـافير المـذعورة؟ "هنـد" جامعـة الحبوب وأمها التي لم يرها؟ شجرة التوت والأكشاك الثلاثـة والعجوز الذي صادفه تحت الشجرة؟ كـل ذلـك مجتمعـا؟ لا يعرف. لم تعد هناك فرصة أن يفكر أكثر من ذلك.

لقد تذكر بعد أن مشي كثيرا فوق الرصيف، أن ما نسـيه هو الشجرة والأكشاك الثلاثة والعجوز. إنه لم يرهـا حـين انتهى من رصيف الباشا. لم يرها حين التفت ينظر. انبسطت الأرض أمام عينيه. صار مكانها مربعا خاليا متربا. لقد نسي أن يجلس هناك؛ لأنه لم تعد هناك شجرة ولا عجوز. اختفيـا مثل الشرطي وقمر. ويحس الآن بالضيق يكاد يبعثره. لكـن رفيف أجنحة قوي ومتعاقب يملأ الفضاء فجأة. ينظر. مظلة من العصافير كثيفة. العصافير تساعد نفسها بقوة رفيفها على الاتزان في الهواء. المظلة لا ترتفع عـن حافـة الرصـيف إلا قليلا. يقترب وهو يعرف. يود لو يتراجع ولا يسـتطيع. ماذا سيفعل الآن؟ كيف سيقاوم الغثيان والكره على القـيء. هذا الثعبان اللئيم لماذا يظهر اليوم؟

* * *

لا يعرف أحدا يكره الثعابين مثله. يكره شكلها المنسـاب بميوعة. رءوسها المبططة. عيونها الصغيرة. اتنتر صارخا. ألقى عليه تلميذ ثعبانا، قال إنه ليس بثعبان. لكنه كـان قـد صرخ. قال التلميذ وهو يضحك إنه من الجلـد الصـناعي. ضحك التلاميذ فقال إنه اشتراه من طنطا من المولد. جلـس إلى التختة مقهورا. فتح الدرج. كان المدرس يكتـب تـاريخ اليوم على السبورة. وهو يجاهد أن يمنع نفسه عـن القـيء. كان داخل الدرج ثعبان آخر. والأولاد جميعا ينظرون إليـه وينتظرون. تقيأ وبرزت عيناه. أرادتا الانطلاق ومعدته. دار به الفصل. "يا حيوان". هتف المدرس فزعـا مـن صـوت القيء. كان قد بدأ يفارق الوعي. سقطت ذراعاه داخل الدرج وتلوثتا.

الآن يجد الظل حوله في كل مكان. الجـو صـار أكثـر رطوبة. ليس هناك شمس كبيرة أو صغيرة. ينظـر فوقـه. سقف الرصيف سحاب قاتم قريب. كان قد اقترب من حافـة الرصيف. فسر له سقوط عش صغير جوار الثعبان وجـود السقف فوقه. الثعبان يقف على جزء صغير من ذيله. يرتفع مادا جسمه الطويل. في فمه عصفور صغير سقط مع العش.

لقد مشي أكثر من نصف الرصـيف ولا يـدري. صـوت العصافير ورفيفها يدفعه لأن ينهي الموقف. أمعـاؤه تدفعـه أكثر. الثعبان يتلوى ولا تنعكس عليه أي أشـعة. العصـفور الصغير بلا ريش. أحمر الجلد. زغب قليـل يغطـي أعلـى رأسه. إنه يراه جيدا رغم تراجعه. يرى حتى عظام سـاقيه والعظمة الناتئة فوق الإست. يرى منقـاره الصـغير جـدا. والدائرة الصفراء حول المنقار. لابد أن يقتل الثعبان.

* * *

قال العجوز فزعا "انتظر". هذه أول مرة يراه. كان جالسا ممددا تحت الشجرة. أغفى قليلا وأفاق فرأى ثعبانـا رفيعـا صغيرا يزحف وئيدا ناحيته. قفز واقفـا مـذعورا. تنـاول البندقية من الأمام ورفعها ليضرب الثعبان. وقف ينظر إلـى العجوز مندهشا رافعا بندقيته. توقف الثعبان عن الزحف وبدا كأنه ينظر إليه. انحنى العجوز وفرد كفـه فصـعد عليهـا الثعبان.

- إنه أليف.

قال العجوز مبتسما. وجهه صغير بريء كوجه طفل. قال صياد اليمام لنفسه فيما بعد، إن الشيوخ والأطفال يلتقون عند

نقطة واحدة من خلف الزمن. كانت الغضون الكثيرة في وجه العجوز، تبدو مضحكة حين يبتسم أو يضحك. وظلت عينـاه ضيقتين ويرتدي دائما الملابس الخضراء للعاملين في السكة الحديد.

تكور الثعبان في يد العجوز وبدا نائما. ابتعد العجوز بـه ثم عاد بدونه.

– وضعته خلف الكشك.

ظل صياد اليمام ذاهلا. اليوم شديد الحرارة. بدا له وكأن شجرة التوت احترقت وأن النار تشتعل حولـه فـي أركـان المنطقة.

- أراك هنا كل يوم وتمنيت أن أجلس معك.

قال العجوز فتعجب صياد اليمام.

- وماذا يمنعك. الشجرة والمكان ملككم وأنا غريب؟

- حين تأتي أكون انتهيت من الجلوس تحت الشجرة.

لم يفهم صياد اليمام. كان ذلك منذ أعوام قريبة. لم يشأ أن يتحدث أكثر من ذلك. قال العجوز:

- حاول أن تأتي قبل ذلك بوقت كاف.

لم يكن صياد اليمام يدرك أنه يأتي في وقت محدد. فهـو في أيام الصيف حين ترسل الشمس أشعة غبية ثقيلة في تتابع أعمى مقيت، وتبدو القضبان كأنها خطوط ثابتة كالحة صدئة لا تبرق، وبقع المازوت كدم أسـود متخثـر، والقطـارات والعربات ساكنة متباعدة في خصام أزلي، كأنها قطع أحجار ضخمة تركتها الطبيعة بلا عناية منذ ثورانها الأول، حينئـذ يجنح للجلوس تحت الشجرة. ترك العجوز ولم يفهم معنى أن يكون الثعبان أليفا..

* * جعل يفكر في حجر أو قطعـة حديـد ينهـي بهـا الموقف. فكر أنه لن يستطيع الاقتراب مرة ثانيـة. وربمـا أخطأ الثعبان فقفز إليه. صياد اليمام لا يفعل ذلك. يعرف أنه لم يصطد شيئا طوال خمسة أعوام، لكنه لا يزال قادرا علـى التصويب. أبدا لم تظلم عيناه أو ترتعش يداه. لقد علمه رجل كان يصطاد النمل الساري فوق الأرض. تركه أجل! يغازله من بعيد بخطابات غريبة حقا! لكنه – صياد اليمام – يستطيع قتل النملة لو طارت في الفضاء!! فليخـب إذن ظنـه مـن تصور أنه لم يعد ماهرا. وليخب ظن اليمام الـذي يختفـي معتقدا أنه حين يعود سيكون صياده قد هـرم. إنـه، صـياد

اليمام، طيف ليل في نهار مشتعل. حلم خافت في ليل شـديد الثقل. وغبي من قال إن خمس سنوات خواء هم ثقيل. زوجته غبية. الشرطي غبي. قمر. هند. العجوز. يسألونه ما إذا كان يعرف عدد اليمام، ولا يعرفون أنهم أضـاعوا أيـامهم فـي العدد!! إن الذي اصطاد في جنح الليالي يماما كثيـرا يحلـم فوق العوارض وتحت الأسقف لا يهرم أبدا. الـذي يركـب فوق بندقيته كشافا رفيع الضـوء، واختـاره كـذلك تحـديا لمجهول، وصمم على أن يكون قطر دائرة الضوء عند غايته حين يصطدم بالسقف العالي، لا يزيد عن حجم العصفورة!!، ويميز به اليمام، ويبرهن للدنيا أنه ما صـاد وخـاب، هـذا الصياد لا يعرف الهرم. يعرف فقط، إنه ما يركـز الضـوء أكثر من مرة. لم يبحث قط. في كل مرة كانت يمامة. قبل أن تفتح عينيها تكون بين يديه. تسقط نائمة. يقطع أحلامها بغـد فيه طيران وحبوب. لم يسمع، لا هو ولا اليمام، صوت حبة رش اصطدمت بالسقف. لم يخطئ جسم اليمام. إنه ثعلب. بل يتعلم الثعلب من صياد اليمام. ولسوف يقتل الثعبان بحبة رش واحدة. هذا المخلوق المقزز الذي لم يصدق أنـه يمكـن أن يكون أليفا.

* * *

- إنه ثعبان أعرفه. يمضي النهار فوق الأرض وبالليـل يسكن سقف الكشك الذي أنام فيه. إنه "بيتي". الثعابين التـي تسكن البيوت تألفها وتألف سكانها.

قال العجوز فقال له:

- لكنك فتحت يدك فصعد عليها. هذا شغل حواة.

ضحك العجوز الذي بدأ يصب الشاي. في المرة التاليـة قال:

- الحواة تحطم أسنان الثعابين أو تختارها من النوع غير السام. أنا لم أفعل ذلك. إننا نعيش معا. ثم إنني تعلمت كيـف أروض الثعابين من الهنود.

صار يذهب إلى الشجرة في وقت يكون فيه العجوز جالسا تحتها. لم يعرف هل قصد ذلك أم أن العجوز هو الذي غيـر موعده لم يفكر في ذلك. صار يحس كأن السماء أرسلته هـو والعجوز فقط إلى هذه الدنيا ليعيدا ترتيبها. نمت ألفة عظيمة بينهما حتى في أيام الريح والمطر.

- يقولون إن عمر هذه الشجرة مائة عام.

قال العجوز ذات مرة. قال صياد اليمام:

- إنها قوية.

- ظلها عجيب. بارد كالثلج.

كان ظل الشجرة كذلك فعلا. استطرد العجوز.

- هل جلست تحتها في الشتاء؟

- لا.

- تسقط الأمطار حولها ولا تطولها. لا تصل إليها الريح الباردة. تنفث دفئا – وضحك العجوز ذو الوجه الطفولي! – أقول دائما إن داخلها بالشتاء شمسا وبالصيف قمـر، وإنهـا بالليل تضيء حولها وتحتها ولا يصدقني أحد.

* * *

وهو أيضا لا يصدقه أحد. يتصورون أنه صـار عـاجزا عن الصيد وخانه التصويب. الآن سـيقتل الثعبـان دون أن يرى منه غير الرأس الصغير.

ينبطح أرضا ورأس الثعبان يعلو حافة الرصيف بكثيـر. لابد أن الثعبان يعرف نقطة ضعفه. يريده أن يـرى جسـمه فيتقيأ. لن يعطيه الفرصة. العصفور لا يـزال وسـط الفـم. الثعبان لا يبتلعه ولا يتركه. لا يأكله. الثعبان الخبيث لا ينهي الموقف. العدو الأزلي للعصافير يباهي بعصفور صغير كونا

فارغا. وصياد اليمام لا يحب الزهو. أجل. ما حاجة الإنسان إلى كسر قلوب العباد؟! وما قيمة الإنسان إذا كسر قلبه أحد؟ صياد اليمام لا يحب الظلم. لماذا لا تأكـل الثعـابين فيشـبع العدل في العالم! هذا الكون الظالم هو الذي جعـل الإنسـان يأكل اليمام. جعله يصطاده. جعله ظالما.

* * *

- أنا قناديلجي. أنت صياد يمام فقط.

قال العجوز فرد صياد اليمام:

- أجل.

- ألا تصطاد الحمام؟

ضحك. ظنها نكته. قال:

- للحمام أصحابه.

فكر العجوز قليلا. قال:

- أليس لليمام أصحاب؟

فاجأه. قال مرتبكا:

- لا أعرف. إني أراه سابحا في الفضاء.

ضحك العجوز بشدة وهمهم.

- لا عليك – وصمت لحظة – لكني لا أراك تصطاد هذه الأيام. ألا تجرب منطقة أخرى؟

لم يشأ أن يحدث العجوز عن رغبته في استبدال البندقيـة بأخرى أكبر وأقوى تقتل ما تحت الأرض وفوق السماء. أن يحدثه عما يشعر به هنا. إنه يتحول إلـى ريشـة تطيرهـا النسائم، يحس أن جلده يتغير ويتفتح لتنفذ مـن خلالـه لـذة سرية. يرتاح ويتنفس من كل مسامه.

كان العجوز يدقق النظر إلى وجهه. جعل هو يدقق النظر في طابور صغير من عمـال الدريسـة يمشـون يكـادون ينكفئون. الأقدام ضـخمة لأن أحـذيتهم كبيـرة. ملابسـهم الخضراء قاتمة. على أكتافهم "عتلات" علقـت بهـا خلـف ظهورهم "مقاطف" لابد أن بها قطعا مـن الفحـم والخشـب يستخدمونها في إشعال النار في بيوتهم. وليس ببعيـد عـنهم مجموعة أخرى تحفر في الأرض بعد أن رفعوا قضيبين لابد سيغيرونها.

قال العجوز وفاجأ صياد اليمام كعادته التي عرفها فيمـا بعد.

- أنت تشبه ابني تماما.

- هل لديك أولاد؟

- واحدا. مات. كان صياد يمام أيضا.

ارتبك. أحس أنه سقط من سقف الرصيف فـوق الـبلاط المربع الصلد. لكن العجوز ابتسم. أراد صياد اليمام أن يحول الحديث:

- أنت تصنع شايا ثقيلا حلوا.

- تعلمت ذلك في الصحراء من البدو.

- كيف؟

- أصاب يمامة أسفل سقف الرصيف فطارت ووقفت فوق عارضة ولم تسقط.

صعد يأتي بها فسقط!

* * *

إنه ليس بظالم الآن. إذا كان الكون يعانده ويحجب عنـه اليمام، فلقد سبق وقتل اليمام ابن العجوز. الصياد الماهر لـم يعلمه كيف يكون اليمام ظالما. لعله نسي. ربمـا ليسـتكمل الخدعة. ربما لأنه لم يخطئ في الصيد. قال لـه: "لا تطلـق حبة رش واحدة في الفراغ. أصعب شيء أن يشعر اليمام أنه مطارد. ثق في نفسك وأطلق حبة الرش وستصيب. اليمـام

مثل البشر يظن أنه يعيش سعيدا، ولا يجب أن تسـلبه هـذا الظن. بلاهة هي حقا تسيطر على الطير والحيوان وبني آدم، لكنها وقد طال بها العهد صارت عين العقـل. ألا تـرى أن الناس حين يموت منهم أحد فجأة لا يحزنون كثيـرا. إنهـم يشعرون بضعفهم فيستسلمون. وربما لا يشعرون بأي شيء. لكنهم يستسلمون. إنهم في الحقيقة لا يريدون إلقاء الحصـى في الماء الراكد. السعادة ماء راكد. لكن إذا مرض الإنسـان كثيرا قبل أن يموت، أو أصابته حادثة ونجا ليعـاني جـراح الموت، فالناس تشعر بالظلم حين يموت؟ لقـد فشـلوا فـي علاجه في وقت خيل لهم أنهم قادرون. دخلوا حربا عقيمـة لمجرد أنهم حشروا في لغتهم شيئا اسمه القـدرة أو الأمـل واجهوا حقيقة لم يحبوا مواجهتها. احتل العقل مكان البلاهـة ونسي المساكين أنهم لا يريدون ذلك. لهذا لا تطارد اليمام إذا اجتمع. صوب بحيث تذهب حبة الرش في مقتـل، فتسـقط اليمامة من بين أخوتها. سترى اليمام يطير بعيدا ينتظرك. لن يعرف أنه الموت لأنك لم تكن موتا. كنت صيادا وعليـك أن تظل كذلك فلا تكن ظالما.

هذا الثعبان الذي يرى مظلة العصافير المذعورة فوقه، هو الظالم الوحيد الذي يستحق القتل. شيء ثقيـل يتحـرك فـي معدته وعليه أن ينتهي. لاذت الشمس بنوم طويل ولا يعرف الوقت، لكن لا يزال في الكون ضوء ولـو شـحيح، وهـو يستطيع أن يرى. صياد اليمام صبور حقا، لكن الأريب عليه أن يعرف اللحظة التي ينحي فيها الصبر. رأس الثعبان ليس يمامة. لكنه سيجعله كذلك.

تضايقه المخلاة المعلقة حـول كتفـه فيخلعهـا بسـرعة ويضعها جانبا. يباعد ما بين قدميه. يرتكز بسني الحـذائين على أرض الرصيف. يرفع نصـفه الأمـامي إلـى أعلـى ويصوب. رفات أجنحة العصافير صخب عاصـفة حمقـاء. رأس الثعبان يختفي أسفل حافة الرصيف. يرى بدقة شـديدة حافة ظهر العصفور. لا يصطاد العصافير. لا يفهم، وربمـا لا يفهم أحد لماذا؟ آه. ربما لو اصطاد عصفورا مرة لم تمر السنوات الخمس بلا صيد!

* * *

- لماذا لا تصطاد العصافير يا أبي؟

- .....

- خذني معك أصطاد. أنت كبير تصـطاد اليمـام وأنـا صغير أصطاد العصافير.

ابتسم.

- لماذا حقا لا تصطاد العصافير؟

قالت زوجته وهي تضحك. كانت معطرة بعطر رخيص.

- لماذا لا تستحمين وتزيلين هذا العطر؟

فعلت وهي تبكي. سمع صوتها في الحمام. يحبهـا لكـن لا يعرف ماذا يباعد بينهما. لا تريده أن يصحب الطفل وهو يريد.

كانت وهي تضع الأكل للحمام فوق السطح تسقط فوقهـا أشعة الشمس المائلة فتجعل ظلها طويلا ممتدا. كـان يرنـو إليها. أمسكت بحمامة وكلمتها. عرف أنه يمكنـه أن يفعـل أشياء كثيرة. توقد إحساسه. أدرك أنه يمكن أن يكـون لـه تاريخ. حقا. لكن كيف بالذي ضـاع منـه العلـم والعائلـة والوطن. أي ظلام وأي نور ممكن؟ في الصـحراء إمـا أن تصرخ أو تموت. إنه يكره الموت رغم أن كل مـا عرفـه أحبه! قرى وحقول. ناس تتحدث في الهواء الذي يسـع كـل شيء. حفاة وعراة ولصوص. قطارات تتكدس فيها العربات

والأجساد. أخرى تنظر العيون فوق الأرصفة إلى ما يطـل من خلف زجاجها اللامع من بللور! محـلات عمـل فيهـا وحقول انحنى فوقها يتزود بزاد قليل تبتلعه الرحلة القادمـة، وهو يسأل ألم تمر بكم امرأة بيضاء لا يعرف أحد لها وطنا، رآها رجل أبيض رغم أنه من قاع الصعيد، فقال "أنت لابـد من الشمال لأنك بيضاء!" ولم ترد، فقال إنها من وراء ظهر الدنيا ونزح بها وراء القضبان ثم تركها وتركتـه!!؟ يسـأل والقرى الصغيرة تشفق عليه، وتتحسر أعينها وشفاها، ومـا تلبث أن تغلق أبوابها الخلفية. المدن الكبيرة، توقظـه علـى الجوع والموت فيحب الحياة هاربا من أبوابها الواسعة، وهو الآن يريد أن يربح مرة.

اتجه إلى حجرته وعاد بين يديه يمامة لم ينزع ريشـها. جعل يفعل كما تفعل مع الحمامة. كانـت الحمامـة تسـمع واليمامة خرساء. الحمامة ترفرف واليمامة سـاكنة. حـين اقترب من السور الفاصل بينهما قال.

- هل تحبين الحمام؟

أشعة الشمس المائلة تنام فوق عينيها ووجهها المسـتدير. تألقت العينان السوداوان ولمع بياضهما. علمته عينا أمـه أن

يحب العيون السود حين تواجه أشعة الشمس فيتألق البيـاض والسواد مبهرين. وكم قالت له أن عينيه الخضراوين أجمـل ولم يقتنع. تركت الحمامة من يدها فطارت هابطة منضـمة إلى بقية الحمام الذي يتقافز فوق السطح ويهدل.

اقتربت منه فقال كم هي جريئة الإسـكندرية. هـل حقـا ستقبل عليه بالبراءة التي في عيني الفتاة؟ أم لعلها الجسـارة تختبئ في مهد جميل؟ نسي أنه رأى على شواطئ الصـيف وفي الطرقات جرأة أكثر. وفي رحلة المساء الشتوية نسـاء يدور بهن الهواء. كان لا يرى إلا أنه كل يوم يـزن ويطـن وسط صدور مخذولة وعيون تائهة للرجال. ونساء يضحكن كثيرا ويغنين ويثرثرن لكنهن لا يقلن ماذا يفعلن في المساء. كان يعرف أن طقوس حزنهن الليلية أثقـل مـن أن تقـال. ويعرف لم تستجيب الكثيرات مـنهن فـي زوايـا المصـنع لأطراف الرجال!

وتساءل لماذا لم ينزل البحر حتى الآن؟ كيف لـم يعلمـه زميله الذي اختفى السباحة؟ لماذا لم يعـرف أن النـاس قـد تهوى البحر في كثير من الأحيان؟

قالت..

- هذه يمامة؟

- اصطاد اليمام.

- لكنها ميتة!

جفلت. تركت السطح غاضبة. أي حماقة يا صياد اليمام؟ ظل شهرا لا يراها. أغلقت الإسكندرية باب بهجتها الذي بدا أنها فتحته بجرأة أو براءة لم يعد يدري. لكنها ظهرت بعـد شهر شاحبة. رنا إليها حزينا وهي تستند على حافـة سـور السطح في تعب. لم تلتفت إليه رغم أنـه كـان يعـرف أن رسائل عينيه الوادعة تصل إليها. جلست تنظـر إلـى زوج حمام يتناغيان بمنقاريهما. تلقي إليهمـا حبـا ولا يفترقـان. ابتسمت لهما فابتسم لها! التفتت إليه وهي تنهض فرآها تبكي. للبشر طبائع وأسرار حقا. عرف ذلك جيدا. شملت معرفتـه الجن الذي لم يحن عليه، يريد القفز ممتلئا بالحسرة وخبـث الإنسي السقيم. لكنه تساءل كيف لهذه الفتاة البيضاء كالشمعة، الهشة كعود الورد يفزعها موت يمامـة، أن تكـون قاسـية فتختفي شهرا، وهي تعرف أنه ما أتى باليمام إلا ليجد طريقا؟ وتعرف أيضا أن عينيه الزائغتين خاليتان من الخبـث. بـل

مليئتان بوداعة وسكر الإنسان في حضرة السماء! لكن مـن يشأ الصيد يلتمس عذرا للفريسة ويجدد شباكه!

* * قال له العجوز مرة:

- لا يصنع الشاي مثلي إلا من خبر الدنيا وعرف الناس!

كاد يضحك لكنه جارى الرجل فتساءل.

- هل عشت كثيرا في الصحراء.

استلقى العجوز على الأرض. أشار لصياد اليمام أن يفعل مثله.

- عمري – وعقد كفيه تحت رأسه كشاب نشط – وأين؟ في فوكه. هل سمعت عنها. إنها بعد العلمـين بقليـل. هـل تعرف العلمين؟ أحكي لك. إنكم لم تروا شيئا من الدنيا.

لم يكن العجوز ينتظر إجابة من صياد اليمام. كانت شهور طويلة مضت على معرفتهما لم يتحدثا فيها عن كـل شـيء يريده العجوز. بدا مثل قمقم فتح فجأة ولا قبل لأحد بغلقه لأن الجني الذي خرج منه سرق خاتم الأسرار! جعـل العجـوز يحكي بلا توقف.

كان صياد اليمام متألما كأنما العصا التي هوت فوق رأس عمه سقطت فوق رأسه مع كلمات العجوز الأخيـرة. تلـك

محت غشاوة الكذب لكن فتحت طريقا وحيدا وراء سـراب. هذه تقلب كرة الأيام، لماذا يا عجوز؟ يا طفل؟ هل تعرف أن صياد اليمام رأى بحر الإسكندرية ولم ينزله؟ كيـف يخبـر الإنسان الدنيا أكثر من ذلـك؟ رأى أن لا يجـرح الرجـل الطيب. فليسلم بأنه ما رأى، ويسمع:

- كان هتلر سايق في الدنيا. وتشرشل يلعب بالعصا لأن الألمان هاجموا الروس. وحدثت غارة فوق فوكـة والوقـت ليل. جعلت القنابل وجه السماء أحمر والأرض صارت قاعدة فرن. جرينا من فوكة إلى العلمين ولا ندري. أكثر من ثلاثين كيلو ولم نتعثر. لم نتعب.

- هذا غير معقول!

لم يرغب صياد اليمام أن يقاطعه. لكنه لم يصدق بالفعل. قال العجوز ببراءة شديدة:

- لماذا؟ كان ذلك عام ١٩٤٢. فلماذا لا يكون معقولا؟

لم يعلق صياد اليمام.

- في زمنكم كل شيء معقول. هل سمعت عـن الـذين جروا من العريش إلى السويس؟

- هذا أيضا غير معقول.

قال العجوز جادا.

- إذن نصف المسافة معقـول. ونصـف المسـافة مـن العريش إلى السويس أكبر من المسافة من فوكة إلى العلمين. إنني أعرف ذلك جيدا من عملي.

- هل عملت في العريش أيضا؟

قال العجوز نافد الصبر:

- اسمع ولا تقاطع.

ابتسم صياد اليمام. بدا متأدبا. فجأة قال العجوز:

- هل تعرف أني مثلك لا أصدق؟

- ألم أقل لك؟

- أقصد أننا جرينا من العريش إلى السويس!

صمت العجوز. قال صياد اليمام:

- لقد جرينا مرة وجروا مرة.

- أجل يا ولدي. لكن أحدا لم يقل إنهم جروا!

وعاد إلى الصمت من جديد. أعاده صياد اليمام إلى حديثه الأول:

- ماذا فعلتم في العلمين؟

استجمع العجوز نفسه.

- وجدنا قطارا يتحرك إلى الإسكندرية فقفزنا فيـه. كنـا أربعة أو خمسة. لا أذكر الآن. قفز كل منـا فـي العربـة الأقرب إليه. وكان السائق هنديا.

- هندي يعمل في السكة الحديد؟

نفد صبر العجوز مرة أخرى.

- يا ولدي لا تقاطعني. كان هذا عام "١٩٤٢". أحضـر الإنجليز جيوشا من كل الدنيا. استرالي ونيوزيلاند وأفريكان أيضا لهم ذيول. ألم يقل لك أبوك شيئا عن هذا؟ ألم يكن أكبر منك سنا!؟

ضحك صياد اليمام عاليا.

- ثم إني قلت لك إن الهنود علموني كيف أمسك الثعابين. كان هناك ثعابين كثيرة في تلك الأيام.

وأكمل العجوز حكايته الغريبة. السائق الهندي كان أكثـر جنونا من الطائرات الإيطالية والألمانية. العجوز قـابع فـي العربة التي خلف الماكينة مباشرة. لحقت الطائرات بالقطار. كانت القنبلة تسقط فوق العربة فتفصلها عن بقية العربـات. تشعل فيها النار وتطير القضبان والفلنكات والزلط مشـتعلة متصادمة في الظلام. يظل القطار مسرعا يسابق الطـائرات.

بدا كأن الأمر محسوب. قنبلة قنبلة وتنفصل العربات عربـة عربة لتشتعل وما تحتها. في النهاية لم يبق غيـر الماكينـة والعربة التي بها العجوز. وكأن السائق الهندي كان يعـرف أن للعجوز أصدقاء من الجنود الهنود، صمم على أن لا تلحق الطائرات بهما. لكن الطائرات ظلت تطاردهما. العجوز يرى سقوط القنابل خلف العربة والأرض تتفجر. يشتعل الظلام ثم يعود فيشتعل. ظل متوقعا سقوط قنبلة فـي أي وقـت فـوق عربته أو فوق القطار. بل تمنى ذلك لينتهي التوقع المرعب.

- هل جربت ذلك يا ولدي؟

كان العجوز مغمضا عينيه.

- إنه وضع صعب.

- ربما لا تصدق؟

صمت صياد اليمام قليلا. قال:

- إنني أصدق كل شيء.

قام العجوز ليضع كوز الشاي الأسود فوق النار بعـد أن ألقى ما به بعيدا، وملأه بماء وسكر وشاي معا. اعتدل صياد اليمام. جعل ينظف بندقيته. لاحظ بقايا تفل الشاي التي ألقـى

بها العجوز، وهي مبعثرة كرات بنية قاتمة في صف واحـد فوق الأرض. عاد العجوز ليجلس ويقول:

- كنت أتوقع أن يقف القطار في الإسكندرية. لكن كانـت هناك غارة شديدة على المدينة سمعت صوتها والقطار يدور حولها. بل رأيت اللهب يرتفع من قلب المدينة. إنهـا غـارة مشهورة في الإسكندرية اسمها غارة الست سـاعات. الليلـة كلها كانت مشهورة. ولما رأيت أبراج الحمام وسـط الليـل أدركت أن السكة فتحت للقطار إلى القاهرة. قررت النـزول في كفر الزيات. قريتي قريبة منها. هل تعرف كفر الزيات؟

ماذا يفعل به العجوز؟ فكر صياد اليمام؟ لم يشأ أن يجيبه. ولأيام، وربما لشهور بعد ذلك فكر صياد اليمام كيف أمضى العجوز الوقت تحت القنابل حتى ابتعـد عـن الإسـكندرية. وعلى قدر ما رأى من ضعف البشر فإن الوقت الذي أمضاه العجوز منتظرا موته تحت الغارة جعله لا يصدق أن الإنسان كائن يمكن قهره. وفي يوم شتوي دافئ اتسعت فيه الشـمس وجلست مرتاحة فوق الأرض، أحس صياد اليمام أن المنطقة الواسعة ذات الأرض السوداء والعربات القاتمة والأرصـفة القذرة، صارت بيضاء تعكس بهاء النور، وتدفع العيون إلى

الاتساع وامتلاك الأسرار. فكر أن العجوز الذي يتحدث عن خبرة الزمان لا يسخر منه أو يقصد يضايقه. ربمـا الأمـر عكس ذلك تماما. ربما يتمنى لو لم ير شـيئا ممـا خبـره. أو لعله يحمد لصياد اليمام والنجاة. في عصر ذلـك اليـوم سأله:

- لماذا سألتني ما إذا كنت أعرف كفر الزيات؟

صمت العجوز قليلا. قال وهو يتراجع يستند إلـى جـذع الشجرة.

- هل ضايقتك؟

أدرك صياد اليمام أن ما فكر فيه صحيح. قال.

- لا.

قرر أن يحول الحديث لكن العجوز بادره قائلا:

- إنها البلدة الوحيدة التي لم أعرفها رغم قـرب قريتـي منها وعملي في السكة الحديد. ورغم ذلك أكرهها!

لم يعرف صياد اليمام كيف يحول الحديث. صمت.

- كان لي أخ ناشز يقول عنها دائما بلدة ميتة تقع علـى نصف الطريق بين القاهرة والإسكندرية. فـلا هـي لحقـت بالبحر ولا النيل. حتى النيل يمر عليها مقطوع الذراع.

وصمت العجوز قليلا.

- كان غريبا يكره كل ما هو نصف نصف. لم يكن يفهمه أحد من الأسرة.

استمر العجوز يتحدث متقطعا. بدا كأنه لا يحـدث أحـدا بعينه. وصياد اليمام الذي ظن أنه ابتعد كثيرا عن الماضـي كان يتراجع إليه.

- كان أبي يعذبه كثيرا لشقاوته وهو صغير. مات أبـي فتطوع في حرب فلسطين وعمره ثماني عشرة سـنة. عـاد برصاصة مستقرة جوار القلب ويزفر متحدثا في السياسة.

- .....

- تطوع مع الفدائيين في حرب القناة وعاد برصاصة في فخذه، وقال إن النحاس باشا صار مثله يكره كـل مـا هـو نصف نصف. هل تذكر النحاس باشـا. آه. كنـت صـغيرا يا ولدي.

أحس صياد اليمام بالعطش لماء بارد. لاحـظ أن الزيـر الكبير القائم أمام أحد الأكشاك الخشبية الثلاثة قد سقط غطاؤه جواره، وفكر أنهم لابد أهملوه هذا الشتاء رغم أنه جاء دافئا.

- صار مدرسا فقلنا إن المياه ستبتلعه والـزواج، لكنـه تطوع في معركة بورسعيد وعاد مصابا أيضا.

وحين قال صياد اليمام لنفسه، إن اللاعب الـذي يمسـك بخيوط الأيام، لا يمكن أن يجعلها تتقابل علـى هـذا النحـو العنيف، قال العجوز:

- جاءتني زوجته يوما وقالت إنه اختفى.

رأى صياد اليمام أمامه لأول مرة، وجها هرمـا ممزقـا يبكي بدموع شحيحة. حاول العجوز أن لا تسقط كوب الشاي من يده المرتعشة، ونجح بعد أن أمسكها بيديه. قال:

- قامت يا ولدي حربان بعد ذلك. لابد أنه لو ظـل حيـا لاشترك في إحداها أو فيهما.

كان أبي يقول إنه لن ينته إلا أن يقتل.

صمتا طويلا في ذلك اليوم. تسللت البرودة إلى الفضـاء من حولهما. اقترب الليل بسرعة. قال العجوز وصياد اليمام يوشك على الرحيل:

- تعرف ما أجمل شيء؟

لم يرد.

- سطح القنديل. إنني حين أصعد فوق السيمافور لأغيـر زيت القنديل أضع خدي على زجاجه وأرتاح. أجل. كثيرا ما نمت واقفا على السلم ومحتضنا السيمافور وخدي على زجاج قنديله البارد الرطب.

مرت الأيام ولم تنقطع حكايات العجوز، رغم أنها كثيـرا ما حركت ماء ثقيلا حارقا، إلا أن العجوز والشـجرة كانـا محطة حلوة.

حاول صياد اليمام أكثر من مـرة أن ينهـي يومـه دون المرور على العجوز فلم يستطع. كان يـدور فـي المنطقـة ويدور، يجد نفسه قبل أن ينصرم اليوم ماضيا إلى الشـجرة. في كل مرة يجد العجوز جالسا تحتها مهما اختلف الموعـد. كثيرا ما يتردد في الحديث لأنه يخشى أن يهيج، إذا تحـدث عن أي شيء. ذكرى شجية عند العجوز عريض الحياة. لكنه كان يتحدث ويسأل. صار العجوز لا يصمت ولا يبدو علـى وجهه أسى. بل يضحك ويصفق بيديه كطفل.

قال إنه نسي أمر زوجته منذ انتهـت الحـرب العالميـة الثانية. لقد أمضى الحرب في فوكة حارسا على خزان ميـاه ضخم بناه الحلفاء تحت الأرض. وليلة الغارة الشهيرة قفـز

من القطار عند محطة كفر الزيات. كـان القطـار لا يقـف والسائق الهندي بدا يريد أن يلحق بالآخرة! أصيب العجـوز وعولج أربعين يوما في طنطا، وعاد إلى العمل حتى تنتهـي الحرب. وصف لصياد اليمام الأعداد الهائلة من القتلى بعـد معركة العلمين. كم رأسا وجدها في خوذاتها بلا أجساد، وكم قدما في حذائها بلا ساق. وكم خاض فـي دم متنثـر. بعـد الحرب عمل فراشا في القطارات ينظفهـا فـي المحطـات الأخيرة، ويجلس وحيدا وسط المقاعد الصفراء وتحت الضوء الشحيح يغني "يا وابور قل لي" لعبد الوهاب، ترقى وصـار عطشجيا يمون القطارات بالفحم والمياه ويشعل النار. تغيرت القطارات وجاءت غيرها لا تعمل بالفحم فصار "محولجيـا" يقوم بالعمل على التحويلات الأرضية. وانتهـى بـه الأمـر "قناديلجي" يشعل القناديل ويغير زيتها وفتائلها ويرتاح علـى زجاجها. في رحلته الطويلة كان يزور زوجته كـل شـهر أو شهرين. بعد أن استقر في الإسـكندرية تـذكر زوجتـه فأحضرها. هوى ابنه الصيد فجأة ومات. عادت زوجته إلـى القرية. كرهت الإسكندرية ولم تر بحرها. زارها مرات قليلة لكنها صارت زاهدة في الكلام. بدت قـد اعتزلـت الـدنيا

والناس. لماذا إذن يسافر إليها؟ كان العجوز يضـحك. إنـه راض عن العيش في هذا المكان مع الثعابين ومنتظر موتـه تحت الشجرة.

* * *

اليوم اختفى العجوز والشجرة والأكشاك الثلاثـة. يسـأل صياد اليمام نفسه والثعبان الخبيث لم يرتفع رأسه بعد. يمكن أن يحدث هذا في ليلة واحدة. تختفـي "قمـر" و"الشـرطي" و"العجوز" والأكشاك جميعا. الإنسان الخبيث يمكنه أن يفعـل ذلك. وربما يغير الله وجه الأرض أي لحظة يشاء. إن الذي جعل الأعوام الخمسة تمضي بلا صـيد لقـادر أن يجعـل الأرصفة تصعد فوق السماء. لكن إن تختفي الشجرة العظيمة فهذا هو اللغز رغم بساطته. الأشجار لا تدخل فـي حسـاب الانتقام. إنها موئل راحة ومصدر حنان. الله يخلـق الإنسـان ليأخذه. الحياة غزل مقيت بينهما حقا. لكن صياد اليمـام لـم يسمع أو يقرأ أن الله يغازل الأشجار! وشجرة التوت الوادعة العجوز لا قبل لإنسان بقطعها. شمسها وقمرها يهدئان ثـورة الانتقام.

يدرك صياد اليمام أنه ما رأى اليوم غير أرصفة ميتـة، وبضاعة ملقاة متباعدة، وقضبانا سوداء متشابكة، وأسـلاكا متهدلة، وبقعا من المازوت الأسود سقطت من سحب حمقاء. وإنه لم يشاهد حتى عامل دريسة واحد أو وحيد يمشي سليما أو يعرج بكتفه المائل! لكنه لا يصدق أن هذه علامات موت! الموت لا يأتي بشعا هكذا إلا بإصرار. وصياد اليمام ما خذل أحدا أو إله! آه. بالأمس قال العجوز:

- أراك صاحبت الشرطي مؤخرا.

- لكني لا أحبه مثلما أحبك.

ضحك العجوز وقال:

- تحب قمر؟

ابتسم صياد اليمام. استطرد العجوز:

- الشرطي "موسى" هذا لغز كبير.

صمت صياد اليمام الذي لم يكن قد سأل الشـرطي عـن اسمه. يريد أن يسمع فقط. عرف كيف يحدث العجوز.

- يقولون إنه منذ ثلاثين عاما وهو يجلس فـي الكشـك. ولا يفعل هذا إلا خبيث!

داوم صياد اليمام الصمت.

- يريد أن يتزوج من "قمر". كثيرا ما عاد إلى المنطقـة بالليل ليحدثها في ذلك. في كل مرة ترفض فـيجلس ويبكـي أمام الكشك.

دهش صياد اليمام. قال:

- كل ليلة يفعل هذا؟

- ولا يزال. لم يكف ولم يصل. لابد أنه بيت النية علـى غدر.

صمت صياد اليمام قليلا. قال:

- إنه لم يذكر لي شيئا عنك. ألم تتحدث معه من قبل؟

قال العجوز على الفور:

- لماذا أتحدث معه؟

لم يفهم صياد اليمام. صمت وفكر في القيام. قال العجوز مباغتًا:

- ما زلت مؤملا في صيد اليمام؟

لم يرد.

- أنت بالتأكيد لا تعرف عدد اليمام الذي اصطدته؟ إننـي ما زلت أعرف كم كان عدد مركبات الإنجليـز فـي فوكـة وأعرف كم يوما عملت ليلا أو نهارا!!!

للمرة الثالثة كان يسمع السؤال. ترك العجوز متعجبا مـن الجميع. اتجه إلى رصيف القصب حيث جولته الأخيرة. لـم يكن يدري أنه سيسمع السؤال هناك أيضا. والآن يتساءل هل كان لهذا السؤال من معنى لا يفهمه؟ لكن العصافير تصخب ورأس الثعبان يظهر، فتخرج حبة الرش إلى هـدفها الـذي انتظره كثيرا. يحس بالعرق قد بلل ملابسه رغم ظل المكان وبرودته.

* * يريد أن ينام في مكانه. يود لو يتحول الرصيف إلى خيمة دافئة. يرى مظلة العصافير تطير متفرقـة ثـم تعـود متتابعة. أفزعها صوت انطلاق حبة الرش. لكنها تطير مـن جديد ولا يجد العصفور الصـغير معهـا. إنـه لا يسـتطيع الطيران. وربما مات. لكن العصافير التي كانت تصرخ من أجله لم تحمله. لماذا إذن تجمعت؟ لماذا قتـل الثعبـان؟ أي حماقة يرتكبها الجميع.

لم يشأ أن ينهض ليقترب من الثعبان الميت. يـدرك أنـه سيرى رأسه مغطي بالدم، وربما السم. وسيرى طوابير نمل تأتي من كل اتجاه لتزحف فوق الثعبان. نمل صغير قذر يظل قابعا في شقوق بعيدة لا تلفت الأنظار، وربما لا تخطر ببال

أحد، لكنه يظهر بعد أن ينتهي كل شيء فيكون هـو الفـائز بالغنيمة، ويمشي منفردا أو متجمعا مزهوا بنفسه فيملأ أعين الأغبياء ويسد الطريق. وصياد اليمام لا يريد أن يتقيأ. لكـن هل سيظل منبطحا هكذا؟ هل حقا سينام؟ إن الصوت الفاتن، العاهر، يسقط فوق رأسه تصحبه ضحكة مجلجلة واهتـزاز في الكون.

- تصطاد الثعابين؟

كان قد بدأ يتذكر أن طفله في الصباح لم يطلب منـه أن يصحبه ليصطاد العصافير. قال فقط "خذني معك أصـطاد". لكن الذي قال أنت "كبير تصطاد اليمام وأنا صغير أصـطاد العصافير" كان صوته أجمل ووجهه أبهـى. صـورته الآن تجري في الفضاء.

يحس أن جسمه صار ثقيلا لا قبل لروحه علـى حملـه! الخدعة ليست في الذي علمه الصيد واختفى. ولا فيمن اختفوا بعد أن سألوه السؤال الغامض. الآن يـدرك صـياد اليمـام أو يكاد. لكن الصوت سرعان ما يهرب من أذنيه. الصـورة البهية تضيع من عينيه. لا يسمع إلا الصوت الجميل العـاهر يتردد من بعيد كأنه قادم من فوق السقف.

* * *

قام مستندا على يده اليسرى بينما كانت تضـحك. علـق البندقية والمخلاة حول كتفه. جعل ينظف ثيابه.

- أنت. ماذا جاء بك اليوم؟

- إنني أجيء كل يوم. وكل يوم أجمع الحبوب المبعثـرة فوق الأرصفة.

- لكنك فوق رصيف القصب؟

- شاهدتك وأنا على رصيف الحبوب.

قال وهو يسير:

- هل أمك معك؟

ضحكت.

- إننا نقترب من الليل. إنها مع شرطي الرصيف.

لم يكن في حاجة إلى ما يفعله معها مثلما هو اليوم. قالت وهي ترتدي سروالها.

- سأراك غدا.

كانت عربة السكة الحديد معتمة حولهما. دائما هي كذلك. إنه لا ينسى وقع ضربات أقدامهما حـين يتهـاوى الكـون، وتتساقط حجب الغيب وتنكشف جدران العربـة عـن دنيـا

بيضاء بيضاء. لكن وقع الضربات لم يفزعهما قط. ليس في الكون ثمة أحد يسمع. وهما لا يسمعان إلا بعـد أن ينتهيـا. ويسمعان صدى بعيدا جميلا. وجهها الخمري يضيء أمـام عينيه. يتراجع وجه زوجته الطيب. لم يعد كما رآهـا حـين صعدت فوق السطح بعد طول انقطاع. كانت متألقة سـعيدة تكاد ترقص فاندفع قائلا:

- هل تقبلين الاعتذار؟

اقتربت تتمايل ضاحكة. قالت.

- من أنت؟

وعضت شفتها السفلى فكاد يسألها من أنت؟ لكنه قال:

- صياد يمام.

ضحكت حتى خالها تغازل الكون السابح في لجة النـور. أوشك أن يضحك فأمسك. وجهه ليس مثل وجهها في بهائه.

- فقط؟

قالت واقتربت أكثر. قال.

- أعمل قبانيا. لكني صياد يمام.

- صيد اليمام ليس عملا.

قالت ذلك ثم وضعت سبابتها على شفتيها خجلي.

- لم؟

أغمضت عينيها. حقا لم؟ قالت.

- لماذا أردت الاعتذار؟

ارتبك. غيرت الموضوع فجأة. هل هـي حقـا تعـرف طريقها. أم أنها الإسكندرية تطبع أبناءها بالفرح والانطلاق؟

- لا أعرف. لكن يبدو أنك غاضبة مني.

- أنا لا أغضب من أحد.

ولم يغضب. صارت زوجته. لم تغضـب. وحتـى الآن لا يبدو عليها غضب. تراجعت عيناها كما تراجعت عينـاه. ذبل وجهها كما ذبل وجهه. خمسة عشر عاما شيء كثير حقا على طائرين. لكن ليست السنون وحدها هي التـي باعـدت بينهما. لقد صارت أكثر طيبة ووداعة. لكنه يعرف الآن أنها تود من الدنيا الانسحاب. تماما كمـلاك أحمـق صـدق أن الأرض أجمل من السماء. لكن كيف ظل هو مناوئا. تعـرف زوجته ما لا يعرفه. ربما رأت ما لم يره. لماذا لم يسألها من قبل؟ لماذا ينسى كلما قرر؟ إنه لا يصدق أن هنـد جامعـة الحبوب الجميلة صارت مرفأه رغم أنه صار يسعى إليها في العام الأخير كثيرا. كانت صغيرة حين رآها في كشك الشاي

أول مرة. كان ذلك منذ عشر سنوات. يزعم لنفسه أنه أخـذ بجمالها البريء. وجهها الخمري وعينيها اللـوزيتين اللتـين لا يعرف أسوداوين أم عسليتين؟ يعرف فقط أنهما مـاكرتين كعيون الأطفال. يزعم أن ملابسها الواسعة الممزقـة كانـت جميلة. سألها قالت إنها جاءت مع أبيها وأمها من الصعيد في رحلة لم تفهمها حتى بعد أن كبرت. إن أباها الذي كان خفيرا فوق رصيف القصب بنى لهما كشكا تحت كوبري التـاريخ عاشوا فيه ثلاثة، حتى سمعته يقول لأمها إنه ضجر من كـل شيء. قالت إنها وهي صغيرة كانـت تصـعد مـن تحـت الكوبري لشراء شيء فتراه يزن القطن، ولم تكن تعرف أنها ستقابله بعد ذلك. وإنها صعدت مرة ولم تجده، ثم لم تعد تراه كل يوم فلم تعد تنظر إلى من يزن القطن. لم يصدق. قالـت لماذا لا تصدق؟ لم يرد. صارت ناضجة تملأ عينيه وتحرك روحه. قال إنه كان ينظر إليها حين تذهب مع أبيها إلى كشك "قمر" ويشفق عليها. لكنه لم يفكر فيها حتى فوجئ بها كبيرة هكذا. قالت إنها سـمعت أباهـا يقـول لأمهـا أن رحلتـه للإسكندرية خابت. لقد جرب أن يمسح الأحذيـة فطاردتـه الشرطة، وكثر الوحل حتى يئست الناس من مسح الأحذيـة.

جرب أن يبيع الكحك أمام المدارس فخطف منه الأطفال أكثر مما باع. أن يبيع الجبن والمش جوار الكوبري فضربه الباعة القدامى، رغم أنه يسكن تحت الكوبري، وهم لا يعرف أحـد أين يعيشون. إن صحته ضعيفة. وربما هو الصعيدي الوحيد في الإسكندرية الذي لا يستطيع العمل في الخرسان. وحراسة القصب موسمية، وتجار القصب يمصون الدم قبل السكر. ثم سمعته بعد ذلك يتحدث عن السفن التي تأتي إلـى الميناء، كيف سيعمل فوقها وكيف أنها مصدر مال وهدايا كبير. ثـم أنه وسيم يستطيع أن يخلع الجلباب ويرتـدي بدلـة العمـال الزرقاء. ولما حدثته أمها عن الغياب، قال إن رحلات السفن قصيرة مهما طالت لأن فرحة اللقاء العاتية تُنسي كل شيء.

- ألم يعد أبوك بعد؟

كان لا يريدها أن تنصرف. سألها وهو يعرف الإجابـة. وإنها لم تعد تتحدث عنه منذ أكثر من العام. وهو في الوقت الذي رآها تحاول أن تنسى كان يذكر أباها. قالت.

- أما زلت تذكر؟

فكر كيف إنه على طول معرفته بها لم ير أمها من قبـل. لابد أنها تنسى مع الشرطي أحزانا كثيرة. لا ينبغي أن يكون

ظالما إلى النهاية. لن يسألها عن ذلك وسيبتسم. لقـد حمـل المسكين حزنها ولم يخبرها. وحتى الآن لا يعرف لماذا فعل ذلك. ربما لأن صياد اليمام دائم البحث فـوق الأرض عـن أشياء طائرة في الفضاء!

* * حين تحدث لأول مرة مع أحد رواد البـار ضـحك الجالسون جميعا. قال أكثر من واحد "من أنت يا أخ. هل أنت معنا في البار؟". كان أصحاب ثلاثة وجوه يرتاح إلى رؤيتها هم الذين يقودون الضحك والكلام. أحدهم هو الذي خاطبـه. أنقذه الجرسون.

- لا مؤاخذة يا جماعة. البيك دائما محترم. أنـا شـبت والبيك محترم منذ أيام الشباب!

أدرك الجرسون أنه صب الزيـت علـى النـار دون أن يدري، فاستغرق في الضحك وازداد الهـرج. كـان يمكـن لصياد اليمام أن ينسحق. أن يخرج. لكنه وجد نفسه يضحك. أمر مثير للضحك حقا أن يتحـدث بعـد السـنين الطويلـة الصامتة. وكيف تحدث. لقد همس.

- حضرتك تعمل في الميناء؟

وفوجئ بالصخر يسقط من فوق الجبل. انخفض الضـحك كثيرا وترددت أصوات السعال في أكثر من ناحية، بينما قال الشخص الذي همس إليه:

- لا. الحقيقة الميناء تعمل فينا جميعا!

وقام ضاحكا ضارب المنضدة بيده يخاطب الجالسين.

- يسألني إذا كنت أعمل في الميناء. أخيـرا عرفـت أن الإسكندرية لا تعرفني.

عاد الضحك والضرب يملأ المكان! البعض صار يسـعل بقوة والبعض يبصق فوق الأرض. قال نفس الشخص الـذي كان متوسط العمر مثل رفيقيه.

- أخيرا نطق قايتباي!

إذن فهم يسمونه قايتباي وهو لا يدري. طـوال السـنين الماضية كان مثل القلعة الرابضة عند الطرف الشرقي مـن المدينة لا يعرف أحد لها عملا. وقال أحد الثلاثة:

- مشروبات قايتباي كلها عندي.

- لا عندي وسيدي العدوي.

- لا. البار كله يشرب على حسابي.

قال الثلاثة ثم نهضوا والتفوا جالسين حول منضدة صـياد اليمام، وتطلعوا إليها جاهدين في قمع ضحكاتهم.

- لا مؤاخذة. ليس فينا من غضب.

كان يشعر بوجهه الذي لا يراه، يتنقل بين الألوان سـاخنا كما يتنقل القطار بين أعمدة أسلاك التليفونات. لكنهم فوجئوا به ينفجر ضاحكا مرة أخرى فعادوا يضحكون بينما هدأ بقية الرواد وانشغلوا عنهم.

- حقيقة ماذا تقول؟ أنا خدامك كمال.

تردد صياد اليمام قليلا ثم قال:

- فقط كنت أسأل ما إذا كنت تعمل في الميناء؟

قال كمال على الفور:

- أنا أعمل في المينا. سلامة يعمل في المينا. مصـطفى يعمل في المينا – وبعد لحظة – كلنا مينا موحد القطرين!

عادوا يصخبون من جديد وصياد اليمام يضحك معهم.

قال سلامة:

- كمال ثانوية أزهرية. كان المفروض أن يجلـس فـي الجامع فجلس على ظهر البحر.

بدا أنه لم يعد ممكنا الضحك أكثر. قال كمال:

- وأنت؟

- علي. صياد يمام.

لاحظ أن هذه أول مرة يقول فيها اسمه لأحد بعد أن ترك عمله في مكابس القطن.

قال كمال:

- علي لن يهمنا. سنسميك صياد اليمام. هذا أجمل.

قال:

- كنت أريد أن أعرف كيف تسافرون؟

* * *

عرف أن هناك أكثر من شركة ملاحة ومكتب لتنظيم رحلات العاملين المصريين على السفن. إن كل سفينة تأتي أو ترحل تسجل رحلتها وأسماء المصريين الذين يعملون فوقها. إنه لا يمكن وقو خطأ إلا إذا أراد أحد أن يهرب من البلاد. أخبرهم أنه يبحث عن قريب له من الصعيد اسمه "مرعي أبو الدهب" خرج منذ ثلاثة أعوام ليعمل على سفينة لم يقل لأحد عن اسمها أو رحلتها أو جنسيتها، وحتى الآن لم يعد. وعدوه بالمساعدة، لكنهم اختفوا.

حين ظهروا من جديد، قالوا إن الباخرة التي كانوا يعملون فوقها، غرقت في البحر الأسود بعد عاصفة سوداء، وإنهـم انتشلوا إلى ميناء أوديسا بأعجوبة. من هنـاك انتقلـوا إلـى العمل فوق باخرة إيطالية قطعت رحلة طويلة إلى بنما. هـذا هو سر اختفائهم لمدة عام. وجعلوا يضحكون. سألوه إذا كان قريبه قد عاد فطلب منهم مواصلة البحث. أمضوا أسـبوعين في الإسكندرية أخبروه خلالهما أنهم يبحثون فـي سـجلات الشركات والتوكيلات الملاحية عن قريبه هذا لكنهم لم يصلوا إلى شيء. قالوا إنه لم يسافر على أي سفينة. لم يكـن هـو يخبر الفتاة بشيء مما يفعلـه. وحتـى الآن لـم يخبرهـا. ولا يعرف لماذا كان يريد أن يعيد هـذا الغائـب مـن وراء الأفق.

بعد شهر عاد مصطفى وكمال. أخبراه أن "سلامة" انتقـل للعمل فوق سفينة لبنانية. سلامة يحب بيـروت دون مـواني الدنيا كلها. إنهما سألا عن قريبه المقاولين الذين يعملون فـي شحن وتفريغ السفن. وهكذا يكون البحث قد تم عنه في البحر والبر ولم يعثر له على أثر.

لم يعلق.

بعد شهر عاد مصطفى وحده إلى البار. أخبره أن سلامة لم يعد حتى الآن من لبنان. ضربت الـزوارق الإسـرائيلية السفينة في ميناء صيدا. المصري الوحيد الذي كـان علـى السفينة اللبنانية غير سلامة عاد، وقال إن الضرب تم وسلامة على الشاطئ.

قال صياد اليمام:

- لعله يعود بعد فترة.

قال مصطفى:

- إننا ننتظر. لقد حذرناه من خط لبنان.

قال صياد اليمام:

- أين كمال؟

قال مصطفى.

- ألم تقرأ في الصحف؟

- لا. ماذا حدث؟

- إنه المصري الذي قتل إيطاليا في نابولي.

وضع صياد اليمام كأس الروم ونظر داخله. ماذا يجري؟ تتحطم السفينة فوق الماء وسلامه فـوق الأرض ولا يعـود، بينما يعود من كان بالسفينة وقت الضـرب. وكمـال يقتـل

إيطاليا في نابولي؟ يحدث كل هذا لأنه سأل عن رجـل تـاه أو اختفى. لماذا لم يظل صامتا في البار؟

قال شاردا:

- كيف؟

وصار البار الصغير متسعا من الخلاء المفرغ من الهواء، خانقا وقابضا. بدأت أشياء غريبة مثل النمل وليسـت مثـل النمل، إنه لا يدركها تماما، تخرج من أعلى رأسه، وهـواء ثقيل أسود يحتل فراغ الرأس.

حكى مصطفى كيف قابل كمال صديقا أيرلنديا في نابولي يعمل على باخرة إنجليزية فقرر أن يترك السفينة الإيطاليـة ويعمل مع صديقه الأيرلندي الذي كان يعمل معه من قبل منذ عشر سنوات. لكن القبطان الإيطالي رفض أن يتركه إلا في مصر حين تعود السفينة مرة أخرى. كمال كهربائي نادر له سمعته فوق السفن ويستطيع ترك أي سـفينة ليعمـل علـى غيرها فورا، وكثيرا ما فعل ذلك من قبل. وإذا حدث ورفض قبطان إعطاءه جواز السفر وتسريحه كان – كمال – يهرب. "إذا قبض علي سيعيدوني إلى السفينة إن ظلت في الميناء. أو إلى السفارة المصرية. في الحالتين لن أخسر" هكذا يقـول

دائما، ولقد هرب أكثر من مرة فشل في بعضها ونجح فـي الأخرى. كان يستطيع استخراج جواز سفر فـي أي وقـت. علاقاته الطيبة مع سلطات الميناء في الإسكندرية سهلت لـه ذلك. هداياه كثيرة وإن تسرب معظمها إلـى نسـاء شـارع الحجاري.

هذه المرة هرب كمال. حذره مصطفى. "القبطان قرصان صقلي أعرج شرس لابد كان لص سفن في قبرص أو مالطة" قال كمال لمصطفى قبل أن ينزل إلى المدينة التي عربد فـي أحد باراتها عربدة إسكندراني. "يعني ما لهاش لازمة" قـال مصطفى. انتهت العربدة بأن ضرب البارمان بزجاجة فـوق رأسه فمات. لم يسمح القبطان لمصطفى أن ينزل إلى المدينة ليتابع قضية صديقه. "أنا لا أملك جرأة كمال. لكني لا أصدق أنه يقتل". قال مصطفى:

عاد صياد اليمام من الخلاء الخانق. في عودته واجهـت عينيه عين شمس صغيرة حمراء حادة قاسية. عرق كثيـرا بشكل ملفت للنظر. قال مصطفى:

- أخبرت سلطات الميناء فوجدتهم يعرفون القصة. عرفت أنها نشرت بالصحف.

لا يعرف صياد اليمام لماذا فكر أن يسـأل عـن أسـرة صديقه. إنه لم يسأل أحدا عن أسرته منذ وصل الإسكندرية. كل ما عرفه من الذين عرفهم ساقوه إليه دون أن يسألهم.

لا يعرف أيضا لماذا لم يسأل!! ترك البار ولم يعد لأيـام قليلة. عاد فلم يجد مصطفى. لشهور لم يعد مصطفى. في كل مرة يحسبه الجرسون حزينا. "مازلت تسأل عن مصـطفى". يقول الجرسون. لا يعرف الجرسون سـر جهامـة صـياد اليمامة. الحكايات باهتة كلها والرواية في الأصل مهزلة يدبر وقائعها لئيم. آخر مرة كانت منذ أسـابيع، ليلـة أن حدثـه الشرطي عن الطفل الجميل الذي دهمه القطار.

لم يفكر صياد اليمام أن يخبر هند بشيء. تـاق حقـا أن يأتيها بخبر. لم يتكتم بحثه عن أبيها خوفا أو توقعا للفشـل. أراد أن يكون صاحب مفاجأة سارة لأحد أي أحد. كان البحر مفاجأة.

* * *

قالت واجمة:

- يبدو أن كلا منا قد ارتاح إلى حياته.

لم يفهم. قالت مبتسمة:

- ثم إنني أكبر وأصير جميلة.

ضحكت وهي تقترب منه. تعرف أنه حين يراها يرتبـك، منذ خمس سنوات حين شاهدها لأول مرة في كشك الشاي مع أبيها، كانت جالسة القرفصاء حول كوم من حبـوب القمـح. انحسر جلبابها عن ساقيها فكشف جزءا من أعلى الـركبتين السوداوين. "إنها ترتكز عليهما كثيرا". قال في نفسـه وبـدا مرتبكا فأدركته. هذه المرة لم يرتبك. اقترب منها. أرادت أن تتراجع. لم يحدث أن كان قويا من قبل. إنه يهواهـا بحـق. لكنه اليوم لم يتلعثم أو يرتعش. اقتربت علّه يعـود هاويـا! قالت:

- يكفي مرة واحدة. أمي في انتظاري.

- قلت إنها مع الشرطي.

وجذبها. قالت وهي ترفع سروالها إلى وسطها. لم تخلعه هذه المرة. تركته معلقا فوق إحدى عقبيها.

- أنت اليوم غريب.

لم يعلق. قالت:

- أنت تعرف "طلبة" العجوز؟

- وأجلس معه كل يوم. هل اسمه طلبة؟

ضحكت.

- كيف إذن تجلس معه كل يوم؟

لم يرد. أخبره العجوز منذ قليل باسم الشرطي لأول مرة، وها هي تخبره باسم العجوز الذي جلس معه أكثر من عـام. لم يعد يندهش. قالت خجلى:

- ألم يقل لك شيئا؟

- يتحدث معي في كل شيء. ماذا تعنين؟

- يريد أن يتزوج أمي.

ضحك عاليا فتردد الصدى في العربـة المظلمـة كأنـه طرقات النحاس في كهف.

قال:

- هل تعرفين موسى الشرطي؟

- أجل.

- أخبرني اليوم طلبة العجوز أنه يريد أن يتـزوج مـن قمر.

تعلقت بكتفيه كقطة. كانت صادقة حتى أنه سـمع دقـات قلبها وهي تقول:

- أريد أن أتزوجك.

بوغت. رآها يمامة سعيدة. كاد يضحك فأحس بالأسـف. قال:

- طلبة العجوز يقول إن قمر ترفض الزواج من موسـى الشرطي.

تركت كتفيه. تراجعت. قالت كأنها تحدث نفسها:

- أمي تقول إن أبي سيعود.

خرجا من العربة يفكر كلاهما في شيء يقوله للآخر قبل الفراق.

- هل تريني قاسيا؟

قال فبدا أنها لم تسمع لأنها قالت:

- إنك منذ سنوات لا تصطاد.

- لكني سأصطاد يوما.

قالت:

- هل تعرف كم يمامة اصطدتها؟

لم يكد يندهش للمرة الرابعة في يوم واحد حتى تابعت:

- إننا نحصى عدد حبات القمح والأذرة قبل أن نبيعها كل ليلة. نحصيها حتى الصباح.

وضحكت وعاد اليوم إلى ذهنه من أوله. كانت المصابيح المعلقة أسفل سقف الرصيف قد أضيئت فأدرك أن الليل قـد دخل. لابد أن حوله ظلاما بحق. قالت وهي تبتعد.

- أنت صياد ماهر قتلت الثعبان من أول مـرة. سـأراك غدا.

لم يرد. لم يعرف كيف فارقته ولا أي طريق سلكت. لماذا قالت سأراك غدا رغم قسوته؟ قالتها مرتين، وهي لم تقلهـا على طول ما عرفها من قبل مرة ثم ها هو الغد يكاد ينصرم ولم تظهر. لقد قتل الثعبان ونهض ولا يجدها واقفة جـواره كما حدث أمس حين قتل الثعبان!

لا يسمع الآن صوتها العاهر والكون لم يعد يهتز.

* * ينظف ثيابه مما علق بها من تراب. يعلق المخـلاة حول كتفه. يرفع بندقيته إلى أعلـى بالحركـة اللاإراديـة. سيجدها بعد قليل. يقول لنفسه. يـذكر أنـه فـوق رصـيف القصب. دائما هي فوق رصيف الحبوب. أمس كانت صدفة. قتل ثعبانا اليوم يمسك بعصفور على نفس الرصيف، وربمـا في نفس المكان. صدفة أيضا. أجل. أن يقتـل ثعـابين فـي يومين متتاليين بنفس الطريقة صدفة. لا يمكن أن يكون صياد

ثعابين. لكن العصافير في اليـومين لـم تحمـل العصـفور الصغير أهذه صدفة أيضا!؟ فوق رصـيف القصـب كـان يصطاد يماما كثيرا ويدهش. ذلك كـان أيـام الصـيد. الآن يصطاد الثعابين ويختفي الجميع. تضيء مصابيح الرصـيف فوقه فيعرف أن النهار يوشك على الذهاب. ماذا سيفعل فـي الظلام. وسط البرد بلا مصباح يعلقه فوق بندقيته. أي يـوم هذا الذي انقضى بلا طعام أو شراب. بلا حديث. بلا بشـر. هل اختفوا حقا إلى الأبد؟ لا يصدق حتى الآن أنـه لـم يـر أحدا. كيف نسي أن يأكل ما أعدته لـه زوجتـه ووضـعته بالمخلاة. آه منها وادعة العينين. تقـول إنـه لا يصـطاد، ولا تنسى أن تضع الطعام. تعافه كشيء ثقيل وتنظـر إليـه بعينين دامعتين. أي عذاب؟ لماذا يكون على الصياد أن يتدثر دائما بالصبر؟ لماذا يطول الصبر فيبدو كأنه مناط الحياة؟

يهتز جسمه فيعرف أن البندقية تهتز بين يديه. إنه يسعل. قالت إن البرد شديد. وهو يحس الآن حقا. ها هـو جسـمه يخذله. آن لصياد اليمام أن يستريح. ضوء المصابيح الشاحب يرهق عينيه. ينزل البندقية ويعلقها على كتفه. يخـرج مـن المخلاة غطاء من الصوف للرأس والوجه معـا ويرتديـه.

يسرع الخطى وهو يمسح المخاط المنثال من أنفه بمنديلـه. سيخرج من الباب الذي دخل منه أول مرة. سـيرى زحامـا فوق كوبري التاريخ وحوله من العربات والترام. في الشتاء لا ينتظم بحر الإسكندرية ولا برها، فـي الصـيف وجههـا يشوه. لكنه لم يره رؤية حقة.. دائما خلف الأشياء. الصـيد جعله في المؤخرة. لعله ليس الصـيد. لا يريـد أن يعـرف فينفجر. شيء ما يؤلمه. يجعل أسنانه تضرس. يكاد يفجـره. ليس البرد. ليس الحزن. كيف فاته أن يتبول؟ كيـف حـبس البول كل هذا الوقت. لقد أحس بالرغبة في الضحى واتجـه إلى إحدى العربات. يتذكر الآن أنه لم يـدخل العربـة ولـم يتبول. كيف تحمل الوخزات الحادة في الحالب ومجرى البول ولم يشعر بها؟ عادته القديمة السيئة في أن يتبول في الخلاء هي سبب هذا الألم. أجل. كان رغم وجود دورة مياه فـوق السطح قرب غرفته يهوى التبول وسط الليـل مـن أعلـى السطح، ويستمع لصوت اصطدام قطـرات البـول بـأرض الشارع وهو يقطع نوم الليل! وعلى طول المـدن والقـرى والطرق التي جرى فيها تبول فـوق الأرض وسـط الليـل والنهار. تحت الشمس والقمر. رأى في الظلام بولـه بارقـا

كالكهرمان. ورآه أبيض. ورآه أحمر. وكـان يعـرف أنـه سيعاني من ذلك فيما بعد. أنقذه الزواج حين خليت شقة فـي المنزل فاضطر لترك السطح. لكنه لم ينقطع عن عادته خلال الصيد.

يتجه بسرعة ليقفز من فوق رصيف القصب الذي اختفت من جانبيه العربات اليوم. يريد أن يصعد عربة قريبة بـين الأرصفة. سيغلق بابها عليه ويتبول. لن يفعلها فـي الخـلاء مرة أخرى.

يتراجع فزعا رافعا ذراعيه لا يدري إلا وهو ساقط فـوق الأرض على ظهره. ليس هذا الذي وقف على صدره بقدميه ورفرف بجناحيه العريضين في وجهه وكاد ينقره فـي فمـه يمامة. يتابعه الآن طائرا أسفل سقف الرصيف مبتعدا. يـراه يعود مرة أخرى أسود جهما وفي سرعة يبـدو منهـا أنـه سينقض فوق ليتم ما لم يفعله.

يقترب فإذا به ليس أسود ولا جهما. ينهض صياد اليمامة بسرعة غير معط للدهشة عينا ولا شفة. على يقـين الآن أن ما حدث ليس بمعجزة. الطائر يمامة – يمامة تسـبح تحـت الرصيف ذاهبة آيبة. يمامة تفتح باب السرور. يمامة طـال

الشوق إليها أو طال شوقها فعادت جائعة بعد الضنى. إنهـا لتسبق يماما سيأتي يسبق الأيام. يضـحك وينـزل البندقيـة المعلقة حول كتفه. تتفجر دموعه وتنثال ساخنة تغرق وجهه وتختلط بمخاطه وهو يضع بالبندقية حبـة الـرش بعـد أن فرغت حين قتل الثعبان. يتابع اليمامة بخيوط سلكية تخـرج من عينيه. يمسح مخاطه ودموعه من فوق وجهه وشـفتيه. يجري خلف اليمامة ناظرا إليها. يتمنى أن تعـود. يريـد أن يكون تحتها لحظة واحدة. ينسى البول والألم. تسقط المخلاة فيتركها. يريد اليمامة وهذه فرصته الوحيدة ليهـزم صـوت الريح وفراغ المكان. لو فاز بها سيريها لقمر وهند والشرطي والعجوز. سيعودون. ستبكي زوجته إذ تعود البهجة لعينـي زوجها. خمسة أعوام من الخيبة ليست بالأمر السـهل علـى رجل في قلبه دم ساخن. صياد لا يعرف إلا الصيد. صـياد لا يريد أن ينظر إلى قدميه.

تقف اليمامة أسفل السقف وهو بعد لم يصل إليها. ما يكاد يقترب حتى تطير بقوة فاردة جناحيها عائدة فتصبح خلفـه. باغتته فلم ييأس. لا يريد الآن إلا أن يبقى الوميض الأخيـر للنهار قليلا. نور مصابيح السقف عجوز وهو لم يحضر معه

مصباحا يهديه. تقف اليمامة من جديد وهو يلهث للحاق بها. يقرر أن يصوب إليها طائرة لو عادت. فليركز كل حواسـه في أن يطلق بندقيته في اللحظة التي لا يعرفها الـزمن، ولا يدركها الظلم! ولن يفشل أو تخونه قدرته. يقف ناظرا إلـى اليمامة. يخطو بترقب نمر. اليمامة اللعينـة لا تعـود هـذه المرة. تطير إلى ناحية رصيف الباشا. يتابعها محسورا. هل يجري وراءها عبر القضبان والأرصفة. والآن؟ لكنـه لـن يستطيع تركها. إذا لم يوقع بها لن يأتي أبدا يمـام. آه. مـاذا تريد أن تفعل به؟ والليل ثقيل الوجه تسبقه أنفاسه السـوداء. تقف اليمامة تحت سقف رصيف الباشا عنـد حافـة إحـدى العوارض العالية ويراها من بعيد. ما يزال صياد اليمام حاد النظر. ألم يقتل الثعبان منذ قليل. ضوء الغسـق مـا يـزال يساعده. تقفز من فوق الرصيف. عيناه معلقتان بها وقـدماه تقفزان فوق القضبان ولا تخطئان. يذكر صياد اليمام أن ذلك لم يحدث له من قبل غير مرة واحدة. لم تقف اليمامة فـوق صدره كما فعلت هذه. لم تسقطه فوق الأرض. أتعبته كثيـرا وهي تطير بين الأرصفة. دخل اللعبة معها تحديا. قال له "لا تتحرك. أمسك المخلاة وانتظرني سأحضرها حية. لن تكون

لغيرك". يكاد يتعثر. ماذا قال الشرطي اللعين أول مرة. لـم يقف. حمل المخلاة وجرى خلفه يكاد يسقط بها. كان يريـد اليمامة. ينسى صياد اليمام من علمه الصـيد ومـن سـألوه السؤال المحير. الصورة الجميلة للوجه البهي تعود تجـري أمامه. هو الذي قال "أنت كبير تصطاد اليمام وأنـا صـغير أصطاد العصافير" هو الذي تابعه حـاملا المخـلاة الكـاكي صغيرا بثيابه البيضاء فوق أرض سوداء. كان صياد اليمـام يطارد اليمامة وقلبه مضطرب عليه أن يتعثر خلفه. لم يحب لثيابه البيضاء أن تتسخ، ولا لوجهه البريء أن يجرح.

ما يكاد يقترب قليلا من الرصيف حتـى تطيـر اليمامـة سابحة تحت السقف. يصعد الرصيف بصعوبة. وقف يتابعها. يقرر أن ينتظرها. يعرف أنها ستعود. لقد دخلت اللعبة فيمـا يبدو عارفة بأصولها. لكن الوجه الجميل مثل نور الصـباح يطير مع اليمامة ناظرا إليه!

* * *

- قلت لا تأخذه
- .....
- قلت لن يصطاد. صحته لا تتحمل البرد أو الحر.

- .....

- صار يكره المدرسة.

ولا يرد. لا يقدر على تركه. يأخذه عنوة والطفل فرحان. تسقط اليمامة فيتمنى أن لا يكون السقوط بعيدا حتى لا يرهق الطفل بالجري خلفها. لكن كثيرا ما تسـقط اليمامـة علـى رصيف غير الذي أصابها فوقه فيسبقه ويقفز بلا خوف فوق القضبان، ويجري عائدا بها ضاحكا ولا يشكو. يقول إنه يريد يمامة حية تبيض في البيت وتفقس. يقول هو "أنت تريد اثنين إذن" يقول "تكفي واحدة". يضحك صياد اليمام ولا يفكـر أن يشتري له يمامة حية. لماذا وهو صياد؟

* * *

يسمع صوت اصطفاق جناحي اليمامة قويا وهي تمر فوقه كأنها طائرة! يفيق. يستدير. يتابعها بعينيه. يجري من جديد. الصورة البهية للطفل تجري أمامه خلف اليمامة التي تنتقـل مرة أخرى إلى الرصيف التالي. يقـف متقطـع الأنفـاس. الشرطي اللعين يحفظ رقم القطار ويختفي. لماذا لـم يخبـره أحد غير الشرطي بذلك؟

قمر التي جاءت إلى المنطقة يوم جاء! هنـد والعجـوز؟ لماذا لم يسألهم هو؟

فكر في ذلك أكثر من مرة وهو فوق السرير جوار زوجته التي صارت تغطي وجهها دائما، لكنه لم يسأل. هـم الـذين سألوه سؤالا رخيصا عما إذا كان قد أحصى حصاد الأيام؟

وكان هو الذي يحصى. اليوم عشر. اليوم عشرين. اليوم صيد وفير. اليوم بيع رابح. ولم يظفر يوما بيمامة حية ذكرا أو أنثى.

يقفز من فوق الرصيف في هياج. يجري غير عابئ بأنـه قد يقع الآن. لقد زحف الليل وانقشع آخر ضوء للغسق. إن لم يساعده نور الأرصفة المريض سيسـاعده صـوت رفيـف جناحيها. سيقتلها طائرة. تطير اليمامة تحت الرصيف فيصعد خلفها. تنقطع صورة الطفل الجميل. يشعر بها صارت خلفه. يكاد ينفجر في اتجاهين.

دائما كان يخشى عليه العثرة والسقوط. يقف مشدودا إلى أرض الرصيف الصلدة. اليمامة تقف قريبة منه أسفل السقف ولا يزال قادرا على رؤيتها كتلة غامقـة مكومـة ويسـمع أنفاسها هديلا. "لابد أن يقتل أحدنا الآخر" يقـول ويسـمعها

تقول. تضحك وتتسع عيناها مـاكرتين. منقارهـا الصـغير يطول حتى يكاد يفقأ له عين. يصوب البندقية ويطلـق حبـة الرش. فيسمع صوت اصطدامها بالسقف.

طارت عائدة خلفه ومن فوق رأسه. لقد عرفـت اليمامـة الموت الآن ولن تتركه يقتلها. يا للصياد الظالم. يا للصـياد التعس. لكنه يضع حبة الرش الأخرى.

آه. بعد خمس سنوات يطلق الرش في الهواء. لكنـه لـم يخب حين قتل الثعبان. يحس بجسمه يشتعل. يخلـع غطـاء الرأس والوجه يلقي به فوق الأرض بغيظ. يمد يـده بعيـدا يلمس اليد الطرية للطفل الجميل. ينظر فلا يـراه. تتحـرك الدموع تحت الأجفان. يعرف صياد اليمام الآن أن الـدموع تختلف ويختلف البكاء. لكنه يبكي لأول مرة بحق. كيف لـم يبك ذلك اليوم اللعين؟

* * *

- ماذا ستفعل اليوم؟

كانت تبكي وهو خارج للصيد فلم يرد.

- من يدفن الولد؟

صارت تضرب صدرها بكفيها ثم لطمت صدغيها كثيرا. لكنه خرج. اليوم بارد مثل السابق، مشي كثيرا بين القضبان وفوق الأرصفة. قطارات كثيرة كانت تقف خلفها عربات مسطحة عديدة تحمل دبابات وعربات مصفحة ومدافع تأتي من كل أبواب المنطقة. الجنود الذين يصحبونها يضحكون ويغنون. العمال الصعايدة يحيونهم. انتهت الحرب منذ أسابيع لكن العتاد العسكري القادم من الميناء لم ينقطع. وكان هو قد حدث الطفل كثيرا عن أيام الحرب عن الحرب، وانقطع الحديث. يذكر قوله "هل كل من يكبر يحارب؟" ورده "كل من يحارب يكبر" وسؤاله "هل حاربت يا أبي؟" وكيف قال لا.

لم يصطد شيئا ذلك اليوم. وهاهو يتذكر. ظل أياما يمشي بين القضبان والأرصفة ناظرا إلى الأرض منقبا عن شيء لا يراه. يرى الجنود والعتاد ويسمع الناس تتحدث عن الانتصار هذه المرة. ثم عاد يصطاد أكثر من ذي قبل ثم انقطع اليمامة. لم يعد يسمع من يحصي اليمام ولا زوجته التي كانت تسأل "كم بعت اليوم"؟ فيسبقه الغلام قائلا العدد ومقدمات الثمن. في كل يوم كان يقول له "اضربها في طرف رجلها فلا تموت" ويبدو صياد اليمام فاشلا، يصوب فقط إلى

الجسد أو الرأس. يقول له "يا يحيي لا أستطيع أن أصطاد لك يمامة حية" ولم يشأ أن يحدثه عن الظلم كيف يكون. ولا عن الحياة وكيف أنها شيء غير مضمون. كان يعرف أنه كلما اصطاد يمامة، تمنى يحيي أن تعيش فتخونه ويذبحها هو – الصياد – فيخون الجميع.

* * *

كانت اليمامة قد طارت وعبرت الأرصفة مرة أخرى في الاتجاه المعاكس وسمع رفيف جناحيها كالطبل. إنها تطوي المنطقة هذه اليمامة الصغيرة اللعينة. لم يستطع إلا أن يتابعها بأذنيه حزينا. يصوب بندقيته في الفضاء وراء الصوت ويطلق حبة الرش التي لا يعرف أين استقرت.

يعود والألم البشع الحاد كالسكين يتلوى في مثانته، فيدخل أقرب عربة للرصيف الذي لا يعرف اسمه الآن. العربة مظلمة إلا من مستطيل مائل بعرض الباب المفتوح ينسكب فوقه ضوء المصابيح الواهن. يغلق باب العربة الحديدي الثقيل مقاوما الألم. يتجه إلى ركن في سباق مع اندفاع البول. لقد صارت العربة مظلمة تماما لكنه يعرف من صدى وقع قدميه طول العربة وعرضها وأين جدرانها. كلما اقترب من

الجانب ضعف الصوت والصدى. هـذه حاسـة لا يملكهـا إلا صياد أو لص. يفك أزرار البنطلون بسرعة. لقـد أغلـق باب العربة لا يدري لماذا. آه. أراد الابتعاد عن كل ريح. لن يعرض مثانته للبرد مرة أخرى. لن يتـرك البـول ينـدفع. سيقطره قطرة قطرة ويشعر بالنار تشتعل في مجـراه. لـن يتخلى عن عادته. في المنتصف يطلقه فيندفع في قوس قوي له صوت حين يرتطم بأرض العربـة الحديديـة وصـدى، ويطير رذاذه مرتدا إلى حذائيه. يريد سكينا بطيئة محماة من نار أزلية في يد قاتل بليد. يشتاق للألم المضـني والممتـع. وها هو يوسع ما بين ساقيه بادئا طقسه الأحمق مثـل كـل شيء وتتسع به العربة المظلمة. تنبثق فيها شـمس تملؤهـا بالنور.

ينتهي مرهقا فيتراجع إلى ركن آخر، ولا يدري أنه صار يجلس شيئا فشيئا حتى لامست مؤخرته أرض العربة الرطبة. وإنه يفرد ساقيه على اتساعهما ويفتح صدره يريد هواء أكثر برودة وأرطب. يضع البندقية نائمة جـواره. لقـد سـقطت المخلاة منه وهو يلهث وراء اليمامة. يبتسم. هل يرى أحـد ابتسامته الآن؟

يتساءل هل مضت الأيام حقا؟ الشرطي اللعين قال أكثـر من سبع سنوات. وهو – صياد اليمام – يصدق أنه لم يصطد يمامة منذ خمس سنوات.

اصطاد بعد الحادثة ثم انقطع الصيد. ما فائدة صـيد لـم يحصه؟ لكنه باع وقبض الثمن؟ إذن هي خمـس سـنوات. يبتسم. يفكر في عدد أكثر ثباتا. كم مضى من السـنين منـذ جاء إلى الإسكندرية؟ خمس عشرة؟ ست عشرة؟ ذلك أيضـا لم يعد ثابتا. هل جاء حقا إلى الإسكندرية.. المدينة التي لهـا اسم فريد، لحروفه جرس جميل منفرد؟ كيـف ولـم ينـزل بحرها؟ يحاول أن يعرف متى أدرك ذلك أو أحس به. يفتش في العربة المتسعة بالنور الغريب عن ماض كـان رابضـا على صدره وأمام عينيه. لا يذكر إلا أنه عرف في جنـوب المدينة فريدة الاسم أربعة قيدتهم الأرض. أحبهم لكنهم خذلوه في يوم أراده حاسما. وامرأة انكسرت في عينيهـا جسـارة المدن. ظنها بلسما وكره أن تكون البلسم. ولم يدرك إلا الآن أنها جرح شقه هو، وحاولت علاجه بقوة لا تملكهـا حتـى الملائكة. لماذا فعلت ذلك المرأة الطيبة؟؟ أي طهـر دنسـه. مسكين صياد اليمام لا يعرف القوة الخرافية التي جعلت منه

جرحا لزوجته. فهو الذي جعل الأفق الشمالي يخون ويطوي الثلاثة الذين عرفهم في البار. ألم يحدثهم؟ كان عليه أن يظل صامتا. حتى الذي وضعه في أرض هي في الحقيقة معلقـة في الفضاء، ما لبث أن هجر البر والبحـر وقـال طلاسـم. يحاول صياد اليمام أن يتذكر اسم زميله فلا يناله. لقد زاملـه في العمل قبل الصيد وسمع اسمه يتردد كل يـوم! وزميلـه نفسه لم يذكر اسمه في خطاب من خطاباته. يا للعبة الكريهة. تماما كما لم يعرف – صـياد اليمـام – اسـمي العجـوز والشرطي. لم يفكر أن يسألهما وكان يراهما كل يوم. فلمـاذا ينتظر أن يذكر له زميله اسمه. من أبطال هذه اللعبة. الرجال الذين لم يعرف أسماءهم أم النساء اللاتي لم ينس أسـماءهن؟ لكنه لا يتذكر اسم زوجته. حقا لا يتذكر اسم زوجته.

يزداد الضوء يكاد يحرق العينين ولا يـرى إلا خـواء. ترتخي ذراعاه جانبيه. يميل رأسه على صدره. لا تريـدين يا زوجتي الوديعة للطفل الآخر أن يتعلم الصيد. إنني لم أعلم الأول لو تعرفين. كم أنت حلم غريب.

يقرر أن ينهض ويخرج من أقرب باب عائدا إلى زوجته أسبق من الهواء والضوء، باكيا بين يـديها، مقـبلا خـديها

المثلجين، مهدهدا روحها، ساكبا على صدرها بحـار حنـان سحرية، خارجا من ليله الثقيل، معيدا لعينيهـا حرارتهمـا، ولوجهها نضارته، ولثغرها بهاءه، جالسا معها فوق السـطح يغازلان النجوم، ويبعدان بأيديهما السحب من تحـت القمـر ومن فوق المدينة، واصلا أيامه بأيام كان يحلـم أن يراهـا. لكنه يشعر بحاجة إلى أن يتمدد أكثر، ويشرب من الضـوء الذي يملأ العربة.

بطيئا بطيئا يتمدد شاخصا بعينيه في الفراغ الواسع. تتسلل بهدوء إلى جسمه قوة عارمة ويحتد بصره. لا يرى إلا ثيابا بيضاء تختلط بثياب سوداء تختلط بدم وتتبعثر وسـط ريـح تأتي من كل الأركان، وتصنع في تبعثرها أشـكالا مفزعـة لطيور ذات أجنحة من شعر، وحيوانات ذات مناقير، ورجال بوجوه أطفال، وأطفال عجزة، ونسـاء تلتصـق ظهـورهن بظهور الرجال ويمشون ككائن واحد معذب يلوح – بأياديـه الأربعة المنقسمة في الناحيتين برغبة أزلية أن تلمس بعضها بعضا وتقهر. وهو – صياد اليمام – يحاول أن يحاور الكائن الخرافي فيفشل، ولا يعرف كيف يأتيه. ثم يتحول ذلك كلـه

إلى أعداد وأعداد غير مفهومة، وما يلبث المشهد المفزع أن يختفي.

يقرر أن يقص رؤيته على زوجته. يسألها اسمها بشجاعة، ثم يصحبها إلى شاطئ المكس القريـب لأول مـرة بعـد أن انقطع عنه، ويريان الرجال والنساء والأطفال يسبحون مـع الخيل والحمير، ويتابعان أسراب النورس. وبعد أن رحيـل الجميع يتابعان ضوء الفنار وهو يكشف من بعيد قوس مـاء سحري الضوء تقفز فوقه الأسماك التي كانت نائمة بيضـاء مندهشة فرحة متلألئة، ويعودان يحكيان للجيران حكاية سمك الليل الذي أهاجه ضوء الساحل، فـلا يصـدقهما أحـد، ولا ينقطعان عن الحديث.

يتمنى صياد اليمام أن يفعل ذلك حقا، ولا يبالي بتراجـع القوة التي كانت قد تسللت إليه بنفس الهدوء الخـادع الـذي أقبلت به، وأن العربة مبهرة الضوء صارت شيئا فشيئا تظلم مع تراجع قوته حتى أنها صارت الآن باردة باردة.

انتهت

١٩٨١

صدر للمؤلف

- في الصيف السابع والستين (روايـة) دار الثقافـة الجديدة - القاهرة ١٩٧٩.
- ليلة العشق والـدم (روايـة) مطبوعـات القـاهرة ١٩٨٢.
- مشاهد صغيرة حول سور كبير (مجموعة قصص) وزارة الثقافة – سوريا ١٩٨٢.
- المسافات (رواية) دار المستقبل العربي - القـاهرة ١٩٨٣.

تحت الطبع

- الشجرة والعصافير (مجموعة قصص).
- بيت الياسمين (رواية).